الفصل الثالث

التوكيد فى مقام الحديث عن الغيبيات

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التوكيد فى مقام الحديث عن غيب الماضى وقصص السابقين

المبحث الثانى: التوكيد فى مقام الحديث عن غيب الحاضر.

المبحث الثالث: التوكيد فى مقام الحديث عن غيب المستقبل ومشاهد يوم القيامة.

الفصل الثالث

التوكيد في مقام الحديث عن الغيبيات

مدخل:

الغيب كل ما غاب عنك[1] ويطلق على أخبار الماضين وقصصهم مثل قوله تعالى بعد الحديث عن آل عمران: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾[2] كما يُطلق على الشئ يحدث في الحال لكن لا ندركه ويخفى علمه عنا ويتحقق ذلك فيما يخفى على الإنسان في حاضره وإن كان خلفه،

ويُطلق ــ أيضاً ــ على المستقبل وما سوف يحدث فيه من أمور لا يحيط بها علماً إلا الله ــ تعالى ــ.

وقد اختص الله ــ تعالى ــ نفسه بعلم الغيب، وبقدرته وإرادته ــ تعالى ــ أطْلَع رُسله وأنبياءه على بعضٍ منه معجزةً لهم، ووسيلة من وسائل تبليغ دعوتهم، قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [3].

والغيب بأنواعه الثلاثة ــ الماضي، والحاضر، والمستقبل ــ جاء الحديث عنه في البيان النبوي بأدق الألفاظ وأروع الأساليب وهو لا يقع هكذا إلاّ من نبي مُرسل، فلا يُدرَك ولا تُعلَم صحته على وجه التحديد واليقين إلا عن طريق الوحي وذلك على حد قول القائل: "إن معرفة عالم الغيب تقوم عندنا على الخبر الصحيح، ولا سبيل لنا إلى معرفة شئ في هذا العالم عن غير هذا الطريق[4]".

ونظراً لذلك نرى النبي ــ ﷺ ــ قد راعى تلك الحالة بالنسبة لحديثه عن الغيب بوجه عام فاعتمد التوكيد وسيلة أساسية في توصيل مراده إلى كل سامع،

ومراعاة لمقام الغيب واقتران أحاديثه بالإخبار عمّا خفي على الناس علمُه نرى أن النبي ــ ﷺ ــ قد عمد إلى أقوى أساليب التوكيد فضمّن حديثه عن الغيب منها ما يصد عنه ما قد يُواجه به من شك أو إنكار،

---

(١) لسان العرب مادة (غيب).

(٢) سورة آل عمران، رقم : (٤٤).

(٣) سورة الجن، آيه رقم : (٢٦ ، ٢٧).

(٤) من أسرار النظم في القصص النبوي، د/ عبده زايد، ص١٣٤ طبعة دار الصابوني ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

فنراه قد أكثر ــ خاصة ــ من استعمال أسلوب القسم الذي بــه تبلــغ درجــة التوكيــد أقصاها، وكذا أسلوب القصر بطريق النفى والاستثناء،

ثم بعد ذلك نراه وقد أكثر من استعماله (إنَّ، واللام ، وقد) وغير ذلك من طُرق التوكيــد ووسائله التي يعمد المتحدِّثُ إلى أي منها رغبة فى تقرير حديثه، وتأكيد مضمونــه، وإقنــاع السامع بصدقه مما سوف أكشف النقاب عنه فيما يلى ــ إن شاء الله تعالى ــ مع بيــان أثــر التوكيد فى الأسلوب، وحاجة المقام إليه.

هذا: والإنسان بطبعه يميل إلى معرفة ما غاب عنه والبحث عن المجهول، ومن ثم فــهو يُعيره من الاهتمام بقدر ما يُرضي فضوله وتطلُّعه إلى المعرفة،

وحديث الغيب يُثير فى النفس الشوق إلي المعرفة، ويجعلها تنزع إليها، وتتطلّــع إلــى الإحاطة بتفاصيل ما يُلقى عليها غير آبهةٍ بزمن يمر، أو حال يتغير وقت السماع حيث يتوجــه الإنسانُ بكل حواسه إلي مَن يَقُص عليه حديثاً غيبياً، ويحمله تسلسل الأحداث على تأكد الرغبة فى المتابعة، والشوق كل الشوق إلى معرفة خاتمة ما يُقص عليه مما غاب عنه سواء أكــان ماضياً، أو حاضراً، أو مستقبلاً.

وتشوق السامع لأحاديث الغيب فى البيان النبوى إنما هو نابع من حرصه على النفــع، وأخذ العبرة والعظة من أحاديث الماضين، ومَن غاب أمرهم عنه فى زمنــه الحــاضر، وكــذا احتياطه وحذره مما سيحدث مستقبلاً مما عُلِم أمره ، وقص النبى ــ ﷺ ــ خبره.

وكذا ما يَنطوى عليه حديث الغيب من إثارة، وجذب لانتباه السامع، وكذا ما احتواه مــن وسائل التوكيد وطُرقه نظراً لإيحائها بأن ما يأتى بعدها أمر مهم ومن ثم يُعيره الســامع مــن الانتباه ما يُمكّنه فى نفسه ويرسِّخه فى ذهنه.

وسوف ينتظم حديثى فى هذا الفصل ــ إن شاء الله تعالى ــ حسب منهج الاكتفاء الــذى اتَّبعتُه من أول البحث مع الوفاء ــ بعون الله تعالى ــ بالمقصود من خلال عــرض وتحليــل نماذج من بيانه ــ ﷺ ــ فى هذا المقام تُوضح الفكرة، وتُجلّى المراد.

ونظراً لتنوع موضوعات هذا الفصل قمتُ بتقسيمه إلى ثلاثة مباحث حسب تنوع أحاديث الغيب واختلاف مقاماتها، وهى كما يلى:

المبحث الأول: التوكيد فى مقام الحديث عن غيب الماضى وقصص السابقين.

المبحث الثاني: التوكيد فى مقام الحديث عن غيب الحاضر.

المبحث الثالث: التوكيد فى مقام الحديث عن غيب المستقبل ومشاهد يوم القيامة.

المبحث الأول

التوكيد في مقام الحديث عن غيب الماضي وقصص السابقين

المبحث الأول

التوكيد في مقام الحديث عن غيب الماضي وقصص السابقين

النفس البشرية تميل إلى معرفة ما غاب عنها، والوقوف على أحوال الماضين وإن لم يكن لها بهم علاقة غير علاقة الجنس، حتى قال بعض النقاد: "إن الحكايات والأساطير والروايات الشعبية تعتبر غذاء السواد"(١).

ونظرا لما يشوب قصص الماضين من غرابة ـ أحيانا ـ نظرا لاختلاف طرق حياتهم، ونظم معيشتهم، وغرابة بعض الوقائع التي دارت أحداثها في أزمانهم نرى النبي ﷺ قد اعتمد التوكيد أسلوبا رئيسا في حديثه عن الغيب بوجه عام وخاصة فيما يتعلق بما مضى منه،

هذا: ويغلب على الإخبار بما مضى من أحداث أن تعرض في صورةٍ قصةٍ يسرد المتكلم أحداثها في تسلسل تزداد به رغبة السامع في المتابعة وترقب سير الأحداث، وانتظار الوقوف على نتائجها، إذ الإثارة، وجذب الانتباه من نتائج القصة بوجه عام، وخاصة منها قصص الغيب، "وقد نشأ الإنسان ميالا بطبعه إلى حكاية ما يقع له(٢)" ولا يختص ذلك بقوم دون آخرين.

(والقصة من الأنواع الأدبية البارعة التي يمكن للقاص بها أن يقرر المبادئ، ويُمكِّن الأهداف لأن لها أثرا في النفوس يواكب فطرتها في مدارج الحياة.

والقصة النبوية لا تجنح إلى الخيال الشارد الجموح، ولا للتعمق المفلسف الغامض، ولا للسطحية الفارغة الجوفاء المغطاة بقشرة خالية من بديع العبارة.

وليست هي القصة التي وضع الغرب لها عشرات القواعد والشروط ولكن هي القصة التي تقوم على سلامة فطرة القاص، وتكفي كل الكفاية في تقرير الأغراض، وتروع كل الروعة في تسلسل الأحداث، ولباقة الحوار، وتصوير الأشخاص، وتنبع فكرتها من أجناس النفوس الكائنة الحية، فإن جنحت إلى عالم غير منظور بنته على تباشير الحاضر الشاهد به(٣).)

---

(١) نظام التصوير الفني في الأدب العربي. د/ وهيب طنوس. صـ١٤٦ طبعة مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣.

(٢) قضايا النقد الأدبي الحديث، د/ محمد السعدي فرهود، صـ١٥٢، مطبعة زهران.

(٣) ينظر: الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ، صـ٤٥٩.

ومكانة القصة فى الدعوة الإسلامية مشتهرة ذائعة إذ كانت إحدى الأسلحة النـــاصرة لا محالة إذ أن القصة الهادفة تُقنع العقل، وتُمتع الوجدان، وهى إذا اتضح مغزاها النبيل أعمـــق المسارب الإنسانية إلى الهداية والتوجيه[1].

وفيما يلى عرض لروائع من أخبار النبي ــ ﷺ ــ عن غيب الماضى فى صورة قصـــة، فمن ذلك قوله ــ ﷺ ــ عن نبى الله موسى ــ عليه السلام ــ:

"أَنَّ موسَى ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ كَانَ رَجُلاً حَيِيّاً سَتِيراً مَا يُرَىٰ مِنْ جِلْدِهِ شَئٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ، فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالُوا: مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسَتُّرَ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ، إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُدْرَةٌ، وَإِمَّا آفَةٌ! وَإِنَّ اللهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا، وَإِنَّ مُوسَى ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ خَلَا يَوْماً وَحْدَهُ فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى حَجَرٍ ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ الحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ فَطَلَبَ الحَجَرَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: ثَوْبِي حَجَرُ، ثَوْبِي حَجَرُ، حَتَّى انْتَهَىٰ إِلَى مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرَأَوْهُ عُرْيَاناً أَحْسَنَ النَّاسِ خَلْقاً، وَأَبْرَأَهُ مِمَّا كَانُوا يَقُولُونَ."

قَـــالَ: "وَقَامَ الحَجَرُ فَأَخَذَ ثَوْبَهُ وَلَبِسَهُ، وَطَفِقَ بِالحَجَرِ ضَرْباً بِعَصَاهُ، فَوَاللهِ إِنَّ بِالحَجَرِ لَنَدَباً مِنْ أَثَرِ عَصَاهُ، ثَلَاثاً، أَوْ أَرْبَعاً أَوْ خَمْساً،

فَذَلِكَ قَوْلُهُ ـ تَعَالَى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾[2].

---

(١) ينظر: البيان النبوي، د/ محمد رجب البيومى ، صـ ١٢٧.

(٢) الجامع الصحيح للترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأحزاب رقم : (٣٢٢١). حَيِيـــي: أى ذو حياء، والحياء هو التوبة والحشمة وهو شعبة من شعب الإيمان ــ سَتِير : أى من شـــأنه إرادة الســتر، والستر الخفاء والتغطية ــ برص : داء معروف، وهو بياض يقع فى الجسد، نسأل الله العافية منه ومـــن كل داء ــ أُدرة: بالضم وهى نفخة فى الخصية ــ خلا: أى صار فى موضع خال لا يُزاحم فيه ــ عَـــدَا: أى فرَّ مسرعاً من عدا الرجلُ والفرسُ وغيره إذا أسرع فى سيره ــ ملأ: أى جماعة، وقيل: المـــلأ أشـــراف القوم ووجوههم الذين يُرجع إلى قولهم ــ قام الحجر: أى ثبت، فالقيام يجئ بمعنى الوقـــوف والثبـــات ــ طفق: أى أخذ وشرع فى الفعل، فهو من الأفعال التى تدل على البدء والشروع فى الخبر ــ نَدَباً: النـــدبُ أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد ــ وجيهاً : ذوجاه وقدر وشرف.

ينظر: لسان العرب، المواد: [حيا، ستر ، برص ، أدر، خلا، عدا، ملأ، قوم ، طفق ، ندب ، وجه].

لقد دعت مبالغة نبى الله موسى ــ عليه السلام ــ فى الحيــاء والتســتر طائفــة مــن المفسدين من بنى إسرائيل أن يُفسِّروا اعتزاله مغتسلهم واغتساله منفرداً بأنه لم يدفعه إلــى تلك المبالغة فى التستر إلا وجود عيب فى جسمه يخشى أن يطّلع عليه أحدٌ من قومه مخافــة أن يُعيَّر به، وحاشاه أن يكون كذلك،

ونرى أن النبى ﷺ ــ قد ابتدأ تلك القصة-التى تُظهر جانباً من افتراء اليهود وإيذائــهم أنبياء الله ــ تعالى ــ ورسله، وكذا ما تنطوى عليه نفوسهم من خُبث وسوء-بعلّةِ مبالغة نبــى الله موسى ــ عليه السلام ــ فى التستر مع تأكيدها بأنّ، وإيرادها بصيغــة المبالغــة تحقيقــاً وتقريراً لها وذلك فى قوله:" أنّ موسى ــ عليه السلام ــ كان رجلاً حيياً سَتِيراً ما يُرى مــن جلده شئ استحياءً منه" تلك العلة التى كان ينبغى على اليهود أن يُرجعوا مــا يجدونــه مــن مبالغة نبى الله موسى ــ عليه السلام ــ فى التستر إليها لا أنْ يتجاهلوها ويختلقوا من عنــد أنفسهم علة تناسب قُبح فعالهم، وسوء نيّاتهم بأن يتهموه بأن بجلده عيبــاً جــازمين بذلــك ومؤكدين كذبهم وافتراءهم بقصر فعله ــ عليه السلام ــ على عِلّةٍ وهميّة وهى وجود عيــب بجلده ونفى ما عداها من علل أخرى هى الأحرى بتفسير فعله ــ عليه السلام ــ، نرى ذلك فى قولهم : "ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده" وفسروا هذا العيب حسب مــا يحلــو لــهم ويوافق أهواءهم بقولهم: "إمّا برصٌ، وإمّا أُدرة، وإمّا آفة"، ونلمح ورود كل من الأسـلوبين ــ أسلوب البراءة من العيب الوارد على لسان نبينا ﷺ ، وأسلوب الاتهام الوارد على لسان يــهود ــ مؤكداً بمؤكّد يناسب المعنى الذى سيق من أجله،

فالبراءة من العيب فى جانب رسل الله ــ تعالى ــ وأنبيائه ــ عليــهم الســلام ــ مــن الوضوح والتسليم بها بحيث لا ينكرها إلاّ كلُّ جاحد ومعاند ومن ثم لم يبالغ النبي ــﷺــ فــى تأكيد حصولها لنبى الله موسى ــ عليه السلام ــ بل أورد كلامه عن ذلك مقرونا بمؤكِّد واحــد وهو "أنَّ" على سبيل الاستئناس بها، ولتكون بمنزلة درع يقى كلامه ــ ﷺ ــ من أن يتطــرق إليه شك ممن ضعفت نفوسهم وفسدت عقائدهم،

وأما بالنسبة لإثبات العيب الذى جاء على لسان يهود فقد ورد بأسلوب مؤكَّد بمؤكِّد قوى وهو أسلوب القصر بطريق النفى والاستثناء مما يُظهر بوضوح ما كمن فــى نفوســهم مــن الرغبة الأكيدة فى الإساءة إلى نبى الله موسى ــ عليه السلام ــ وإلصاق العيب به حتى ينفضَّ الناسُ عنه وينفروا منه،

وتعريف النبى ــ ﷺ ــ تلك الفئة الباغية من بنى إسرائيل باسم الموصول "مَن" فى قوله: "فآذاه مَن آذاه مِن بنى إسرائيل" غرضه تقبيحهم، واستهجان التصريح بأسمائهم نظرا لكونهم نكرات لا يُعتد بهم كاذبين محتالين يتورع النقى عن مجرد ذكر أسمائهم لِما عُرف به أصحابها حينئذ من خبث، وافتراء، وتعدٍّ وغير ذلك من كل ما هو سيئ،

كما أن تعريفهم باسم الموصول "مَن" غرضه ــ أيضا ــ الاستهانة بهم وبمكائدهم التى لا تلبث إلا ويبطلها الله ــ تعالى ــ ليحق الحق ويبطل الباطل وقد كان حيث هيَّأ الله ــ تعالى لإثبات براءة نبيه موسى ــ عليه السلام ــ مما نُسِب إليه حالةً تتتابع أحداثها لتصل في النهاية إلى نتيجة مرجوة وهى تأكيد وتقرير براءته ــ عليه السلام ــ بما لا يدع مجالا للشك فى ذلك إذ أن تلك البراءة تحققت عن طريق المعايَنة عن قرب، والتحقق المباشر من سلامته ــ عليه السلام ــ ممن صدر عنهم هذا الافتراء ــ خاصة ــ لا من غيرهم، يتضح لنا ذلك من قول النبى ــ ﷺ ــ:

"وإنّ الله ــ عز وجل ــ أراد أن يبرئه مما قالوا، وإنّ موسى ــ عليه السلام ــ خلا يوما وحده، فوضع ثيابه على حجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإنّ الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه، فطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأٍ من بنى إسرائيل فرأوه عريانا أحسن الناس خَلقا، وأبرأه مما كانوا يقولون"

فنرى فى هذا القول تتابع أحداث البراءة من العيب بترتيب إلهى مبعثه إرادة الله ــ تعالى ــ التى أكد النبى ــ ﷺ ــ ثبوتها بـ "إنّ" فى قوله: "وإنّ الله ــ عز وجل ــ أراد أن يبرئه" مع ما يفيده هذا القول من لزوم هذا المعنى وثبوته نظرا لاسمية الجملة الدالة عليه، وما يفيده ــ أيضا ــ تضعيف فعل البراءة "يُبرّئه" من المبالغة فى تحقيق إرادته.

ولقد أكد النبى ــ ﷺ ــ تلك الأحداث بتصديرها بـ "إنّ" ــ أيضا ــ مع تكريرها فى قوله: "وإنّ موسى ــ عليه السلام ــ خلا يوما وحده" مع تأكيد انفراد موسى عليه السلام وبعده عن أعين القوم بالحال "وحده" وهى حال مقررة لمضمون الجملة الاسمية قبلها" وقوله: " وإنّ الحجر عدا بثوبه ..." ونلمح من ذلك تزايد رغبة النبى ــ ﷺ ــ في تقرير تلك البراءة وتحقيقها، ودحض أى محاولة للتشكيك فى صدق هذا القول المدعَّم برغم صدقه بأكثر من أسلوب من أساليب التوكيد مع تكرر بعضها .

هذا: ولقد عرف النبى ــ ﷺ ــ لفظ "الحجر" فى قوله: "وإنّ الحجر عدا بثوبه" بلام العهد الذكرى لإفادة ربط الأسلوب ببعضه البعض، وكذا للتنبيه بإيجاز على أن الحجر الذى عدا هو

نفسه الموضوع عليه ثياب نبى الله موسى ــ عليه السلام ــ معتمدا فى معرفة ذلك على ذكاء السامع وفطنته فى تحديد المراد،

كما أن التعبير عن حركة الحجر بالعدو ــ خاصة ــ فيه إشارة إلى سرعة سيره مما يؤكد للسامع إعجاز هذا الفعل، وأنه من الخوارق التى يؤيد الله ــ تعالى ــ بها أنبياءه، ويجعلها برهانا ساطعا على نبوتهم وصدقهم، وكذا براءتهم مما قد يعابون به كما هو الحال هنا.

ولا يخفى ما يفيده إيجاز نبى الله موسى ــ عليه السلام ــ العبارة التى نادى بها الحجر أثناء ملاحقته إياه وهى قوله: "ثوبي حجر" من خلال حذف المسند، وكذا حرف النداء من تأكيد الدلالة على ضيق المقام حينئذ، وعدم اتساعه لإطالة الكلام المنادَى به، كما أن فى ذلك ــ أيضا ــ إشارة إلى حالة المنادِي وتلهفه على ظفره بمطلوبه وهو الثوب، مع تأكيد طلبه من خلال تكرير ما يدل على ذلك،

وبتأمل ما سبق يدرك السامع أن هذا كله من نتائج الإرادة الإلهية المصرَّح بها فى قوله ــ ﷺ ــ : "وإن الله أراد أن يُبرِّئه" فلا عجب إذن أن يعدو الحجر ويسبق الأحياء، وأن ينادَى نداء العاقل، وأن لا يجيب لأنه مأمور بفعل لا سبيل له إلا إلى إنفاذه وهو الوقوف بثياب نبى الله موسى ــ عليه السلام ــ عند الملأ الصادر عنهم افتراء العيب عليه حتى يشاهدوه مجرَّداً من ثيابه نتيجة لظروف خارجة عن سيطرته وإلا لَما ظهر عليه السلام على هذا الملأ ولا غيره بهذا الكيفية أبداً وإن ظل طول حياته مُتَّهما بتلك التهمة الباطلة.

(ولقد كان الله تعالى قادرا على براءة نبيه ــ عليه السلام ــ دون حاجة إلى كشف عورته كما كان قادرا على صرف ألسنتهم عنه . ولكنه أراد بذلك أن ينفذ مراده،ويُبيِّن شريعته وهى عدم جواز كشف العورة إلا لضرورة لا أن تُترك عُرضة لاطِّلاع الآخرين عليها[1])

ولقد أكد النبى ــ ﷺ ــ سلامة نبى الله موسى ــ عليه السلام ــ مما عابه به بعض قومه بقوله: "فرأوه عريانا أحسن الناس خَلقا وأبرأه مما كانوا يقولون" مستعينا فى ذلك بصيغتى التفضيل "أحسن" و"أبرأ" ففى هذين القولين مبالغة فى تقرير براءته ــ عليه السلام ــ من خلال تفضيله على غيره من الأصحاء فى هذا الشأن ــ خاصة ــ دون الاقتصار على إثبات حسن جلده وبُرئِه كغيره فحسب وذلك بناء على ما يفيده التعبير بصيغة التفضيل واقتضائها تفوق أحد المشترِكين فى صفةٍ ما على غيره فيها.

---

(١) ينظر: عارضة الأحوذى ، ٨٩/١٢.

هذا: وتصدير جملة إثبات البراءة بالفعل "رأى" مسندا إلى ضمير مَن افتروا العيب في قوله ـ ﷺ ـ "فرأوه" فيه دلالة ـ أيضا ـ على تقرير تلك البراءة، وتحقيق ثبوتها إذ أن سبيلها هو المعاينة الذاتية التى يدل مجئ الحال "عريانا" فى سياقها على كمال تحقق القوم حينئذ من خلو نبى الله موسى ـ عليه السلام ـ من العيب المُفترَى عليه ومن كل عيب أيضا حيث لا ثياب البتة عليه قد يتعللون بها فى جحد براءته إذ الجحود دأبهم، والافتراء شأنهم.

وينقل لنا النبي ـ ﷺ ـ حالة نبى الله موسى ـ عليه السلام ـ وما صدر عنه حين ظفر بالحجر وتمكن من حصوله على ثيابه منه ثم لبسها بقوله: "وقام الحجر، فأخذ ثوبه ولبسه، وطفق بالحجر ضربا بعصاه".

ونلمح من هذا القول حصول العطف بالفاء ـ خاصة ـ فى قوله: "فأخذ ثوبه" لِينقل لنا ﷺ بذلك ما كان من موسى ـ عليه السلام ـ من سرعة فى استرداد ثوبه من الحجر لِيستر به عورته.

وفى العطف بالواو ـ خاصة أيضا ـ فيما يدل على ارتدائه ـ عليه السلام ـ ثوبه بعد حصوله عليه فى قوله ـ ﷺ ـ : "ولبسه" ما يفيد تأكيد الدلالة على المشاركة بحصول كل من الفعلين من فاعل واحد، مع التنبيه على تلبُّس الأخذ واللبس دلالة على السرعة الفائقة من موسى عليه السلام. وهذا شأن كل حيي.

وهكذا الحال بالنسبة للجملة الدالة على أخذه ـ عليه السلام ـ بثأره من الحجر التى يدل عليها قول النبى ـ ﷺ ـ :"وطفق بالحجر ضربا بعصاه"،

ولا يخفى ما يفيده تقديم الجار والمجرور "بالحجر" على خبر طفق من الدلالة على اختصاص الحجر المقصود بالضرب المصرَّح به.

وهنا قد يسأل السامع نفسه ألم يكن نبى الله موسى ـ عليه السلام ـ على عِلم تام بأن الحجر جماد لا يؤثر فيه ضرب بعصا أو ما هو أصلب منها؟ وإن كان يعلم ذلك فما دعاه إلى ما قام به معه؟

والجواب: أنه لا ريب فى علمه ـ عليه السلام ـ بذلك ولكنه فعل ما فعل بدافع آدميته، وإرضاء لدافع الثأر المتأجج فى نفسه، إذ أنه كثير ما يحدث أن يركل الإنسان آلةً ما بِرِجْلِه مثلا عندما تمتنع عن العمل، أو يلطمها بيده وهى جمادلا يؤثر فيها فعله، فتلك عادة ثأرية تنطلق الجوارح ـ أحيانا ـ بها إرضاء لِما كمن فى النفس من عدم الرضا بما حدث لها وإن كان المتسبب في ذلك جمادات لا تعقل،

وإن كان السامع لَيجد فارقا كبيراً بين فعله ــ عليه السلام ــ وفعل غيره من البشر، فمما يُميز فعلَه ــ عليه السلام ــ ويُبرِّره ــ أيضا ــ أن ما حدث من الحجر أمر خارق للعادة فما تعود الناس أن يشاهدوا حجرا يسعى بنفسه، ولا أن يفعل ما فُعِل مما هو مُصرَّح به هنا، ولأن الحجر لَمَّا قام بفعل العقلاء عامله موسى-عليه السلام-معاملة العاقل المذنب ومما يُميز فعله ــ عليه السلام ــ أيضا ــ تأثير العصا فى الحجر مع صلابته فهذا أمر معجِز أيضا.

ونظرا لغرابة تلك الأحداث نرى أن النبي ــ ﷺ ــ قد اعتمد ما اعتمده على مدار الحديث من تأكيد وإن علت درجته حال إثباته أثر العصا فى الحجر حين قال: "فَوَ اللهِ إنّ بالحجر لَندبا من أثر عصاه ثلاثا، أو أربعا، أو خمسا" مُشبها أثر الضرب فى الحجر بالندب وهو أثر الجوح إذا لم يرتفع عن الجلد مبالغة فى إثبات الأثر، وتقريراً لحصوله نظراً لما للتشبيه من دور بالغ الأهمية فى تقرير المعانى وإبرازها واضحة جلية فى إيجاز يزين العبارة، تبلغ به درجة التوثيق والتمكين وذلك مما يهدف إليه هنا.

ونرى أن النبي ــ ﷺ ــ قد أورد لفظ المشبه به "ندَباً" نكرة دلالة على تعظيم الأثر المراد ليكتمل للقوم برؤيته وقتئذٍ تمام العلم بنبوة موسى ــ عليه السلام ــ وأنه مؤيَّد من الله ــ تعالى ــ ومن ثم يحصل لهم يقين تام بنزاهته من أي عيب أو داء مِن شأنه أن يُعيِّر به إلا إذا كان ذلك على سبيل الابتلاء.

وأما عن مؤكدات حدوث أثر العصا فى الحجر فضلا عما سبق فهى القسم أولا، ثم إنّ، واللام، وكذا التقديم للجار والمجرور "بالحجر" على اسم إنّ "لَندباً" بقصد إفادة تقرير اختصاص الحجر بالأثر المقصود،

وعن غرض التوكيد بكل ما سبق فهو تشويق السامع أولاً إلى معرفة المؤكَّد، وحمله على التسليم بصدق المُخبَر به والإقرار بحصوله ونفي الشك عنه أو الإنكار له.

ومن الملاحظ تصريح النبى ــ ﷺ ــ بلفظ الحجر فى موضعين كان يُغنِى عن ذكره صراحة فيهما التعبير عنه بالضمير، والموضعين هما قوله: "وطفق بالحجر" وقوله : "إن بالحجر لندبا" والغرض من ذلك هو الدلالة على زيادة تقرير اختصاص الحجر بما ذُكر، مع قصد المبالغة فى الإيضاح والبيان، نظرا لكون العَلَم المُعبَّر به قاطع للاشتراك ومُقرِّر للاختصاص المراد بخلاف الضمير فإنه لا يخلو من إبهام فى الدلالة .

ومما ينتظم فى سلك التوكيد على صدق هذه القصة العجيبة ما ختم به النبـــى ــ ﷺ ــ هذا الحديث من الاستشهاد ببعض آي الذكر الحكيم فى قوله: "فذلك قوله ــ تعالى ــ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾[1]

فلقد حملت تلك الآية الكريمة بين طياتها وقائع تلك القصة من خلال الإشارة الموجـــزة الداعية إلى البحث عن تفصيل وتوضيح تكفل بهما النبى ــ ﷺ ــ وتلك من خصائص الســـنة النبوية فهى الشارح لِما أُوجِز فى القرآن الكريم، والمفصل لِما أُجمِل، والمبيِّن لِما تحت العموم من هيئات، وصفات، وفروع ، وأجزاء وهكذا.

وبعد: فلقد ساق النبي ــ ﷺ ــ إلينا هذا الخبر سوقا صاحبه التشويق وإثارة الفضـــول لمعرفة ما يتلو كل حدث يُسمَع حتى خاتمة تلك القصة التى تصور لنا انتصار الحق وظـــهوره وانتكاس الباطل وأهله،

فالقصة الهادفة ــ كما هو الحال هنا ــ من أعظم وسائل الإقناع والتأثير فضـــلا عـــن تحقيقها وضوح المعنى المراد وتمكينه فى النفس وتلك من أبرز مميزاتها. فلقد جاءت القصـــة كلها على لسان نبينا -ﷺ- تدور حول فكرة أن الله ينصر أنبياءه وأكدت هذا المعنى بعـــد أن أسَرَت القلوب بأحداثها التى تسلسلت فى حلقات كان أولها التأسيس وإعطاء لمحة عن خُلـــق موسى -عليه السلام- وكذا جميع الأنبياء، ثم تأخذنا القصة إلى ما يُعرف عند النقاد بالأزمـــة وهو الاتهام بالباطل لِتبدأ بعد ذلك مرحلة الانفراج والوصول بالسامع إلى حقيقة ترســـخ فـــى وجدانه وتتأكد لديه،

"فالقصة لابد فيها من ترتيب الأهداف ترتيبا تصير به ذات وحدة عضوية وهى ذات مبدأ تتكون به أسس الحكاية ثم تبلغ الحوادث قمة تأزمها إلى نهايتها فى الخاتمة"[2]

والحديث إذا كان يقص من أخبار السابقين فإن الأمر يخص المسلمين أيضا ممـــا جعـــل بعض الباحثين يرى أن الآية (وبالتالى الحديث الشريف) من قبيل التعريض فيقول: "إنمـــا أراد الله تحذير الذين آمنوا من كل ما يؤذى النبى -ﷺ- وقد ضرب بنى إسرائيل مثـــلا للالتـــواء والانحراف فيكفى أن يشير إلى إيذائهم لنبيهم وتحذير المسلمين من متابعتهم فيه لينفر حـــس كل مؤمن من أن يكون كهؤلاء المنحرفين الملتوين"[3]

* * *

---

(١) سورة الأحزاب ٦٩.

(٢) النقد الأدبى الحديث. د/ محمد غنيمى هلال صـــ ٥١٠، طبعة دار نهضة مصر سنة ١٩٩٦م.

(٣) فى ظلال القرآن. تأليف الشيخ: سيد قطب، ٥/ ٢٨٨٤، طبعة دار الشروق.

ومن أخبار غيب الماضي التى أكد النبي ــ ﷺ ــ حدوثها حثا للسامع على الـــتزام مـــا تدعو إليه من خير قوله ــ ﷺ ــ:

"حُوسِبَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مِنَ الخَيْرِ شَيْءٌ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ رَجُلاً مُوسِراً، وَكَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ، وَكَانَ يَأْمُرُ غِلْمَانَهُ أَنْ يَتَجَاوَزُوا عَنِ المُعْسِرِ، فَقَالَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ تَجَاوَزُوا عَنْهُ." (١).

تدور أحداث هذا الخبر حول قضية إنظار المعسر والحط عنه وهى قضية متكررة بتكـور الأزمان إذ لإعسار واقع تسببه حاجة الناس مع ضيق ذات أيديهم، فهو كربة من أعظم الكـرب التى تصادف الإنسان في حياته، ومن ثم يقع فعل المتسبب فى تنفيس تلك الكربة وتفريجـــها موقعا حسنا من نفس المُبتلَى بها، هذا عند الناس وحسب تقديرهم وبالطبع مـــا عنـد الله ــ تعالى ــ أجل وأعظم، يتضح لنا ذلك ويتأكد حصوله من خلال الوقوف على خاتمة مـــا قصـــه علينا النبى ــ ﷺ ــ فى هذا الحديث الذى تدور أحداث خبره فى زمن ماض لا يعلمه تحديداً إلا الله ــ تعالى،

ولقد عبر ﷺ عن ذلك بقوله: "حوسب رجل ممن كان قبلكم " فقوله : " ممن كان قبلكـم" يفهم منه عدم العلم تحديدا بالزمن الذي عاش فيه صاحب هذا الخبر وجرت أحداثه فيـــه، ولا ضير فى ذلك إذ المقصود الأهم هو العمل الذى تدور أحداث الخبر حول إبرازه، والدعوة إليـــه بصرف النظر عن صاحبه، أو زمانه ولذا لم يكتف النبى ــ ﷺ ــ بإبهام الزمان فحسب بل زاد بأن أبهم الفاعل ــ أيضا ــ حيث عبر عنه بقوله : "رجل" منكرا وذلك حتى لا ينصرف اهتمـام السامع إلى الاشتغال بالشخصية وزمانها، وحتى لا يأخذ ذلك جانبا مـن تفكيره.

والفعل "حوسب" زمنه الماضى ، والظرف" قبل" المضاف إلى ضمير المخاطبين يدل كذلك على المضى، ومن ثم فالتعبير بـــ "كان" فى قوله ــ ﷺ ــ: "ممن كان قبلكم" يقوي الدلالة على المضى، ويوقظ انتباه السامع ويُشوّقه إلى المتابعة رجاء الإفادة والاعتبار من أحداث الماضى. هذا: وإن كان الخبر الوارد فى الحديث ماضيا إلا أن بعض أحداثه زمنها المستقبل وهـــى مـــا

---

(١) الجامع الصحيح للترمذى، كتاب البيوع، باب ما جاء فى إنظار المعسر والرفق به، رقم: (١٣٠٧) موسر: أى ذو سعة وغنى ــ يخالط الناس: أي يشاركهم ويعاملهم بالبيع والشراء ــ غِلمانه: جمع غـــلام وهـــو الطار الشارب، وقيل : هو من حين يولد إلي أن يشيب. ينظر: لسان العرب ، المواد : [يسر، خلط، غلم]

يتعلق منها بالحساب والجزاء من الله -تعالى- فالتعبير بالماضى إذن يفيد كمال المبالغة فى تحقق الوقوع وتأكيد ذلك فى نفس السامع.

ويلمح ـ أيضاً ـ من إيثار بناء الفعل "حُوسب" للمجهول الرغبة فى تقوية إسناده وتقريره لا شتماله حينئذ على إسنادين كما بيَّن ذلك ابن يعقوب المغربى وسبق أن أشرت إليه[1]، ويضاف إلى ذلك طلب التركيز على معنى الفعل ودلالته وهو حصول الحساب، وصوف الانتباه كُلِّيَّةً إليه لما يترتب عليه من نتائج هامة ومصيريّة، فضلاً عن ذلك تمام العلم بالفاعل المحذوف.

ونأتى إلى الأساس الذى قام عليه بناء الحديث وهو قوله ـ ﷺ ـ : "فلم يوجد له من الخير شئ إلاّ أنه كان رجلاً موسِراً، وكان يخالط الناس، وكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسِر" لنرى التناسب والتلاؤم بين هذه الجمل الثلاث ومن ثم وصل النبى ـ ﷺ ـ بينها بالواو إذ المسند إليه فيها واحد، فضلاً عن ذلك ما بينها من تناسب، أو مراعاة للنظير وهو من مميزات الأسلوب البليغ حيث تتلاءم ألفاظه، وتتناسب معانيه، وكل ذلك يؤدى إلى تقوية ارتباط ذهن السامع بالمعنى المراد مع تأكيده وتمكنه لديه.

ولقد أولى النبى ـ ﷺ ـ ما قام به هذا الرجل من عمل من الاهتمام ما يحقق إثباته وتقريره، وذلك حيث خلت صحيفته ـ كما هو مصرح به من أعمال الخير سوى هذا العمل الجليل الذى لولا اقتران ذكره بما اقترن به من مؤكدات لارتابت بعض النفوس فى تصديق حصوله من مثله بحُجَّه أن أفعال الخير يدعو بعضها بعضاً ويُمهِّد بعضها لبعض، فكيف به يعتاد فعلاً جليلاً كهذا المصرّح به مع عدم فعله ما هو أيسر منه ؟! ومن ثمَّ نرى النبى ـ ﷺ ـ قد دعَّم تقرير نسبة العمل المذكور إليه بإيراد ذكره مشتملاً على أسلوب التحقيق والتمكين الذى اشتهر باستعماله مع المنكرين وهو أسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء والذى يضاف إليه في إفادة التوكيد ـ هنا ـ "أنّ" الداخلة على ضمير الرجل وما يفيده ذلك من تكرر ذكره بغرض تأكيد اختصاصه بالعمل المذكور،

وإن كان النبى ـ ﷺ ـ قد أكد بذلك عدّة أمور كما هو واضح من القول السابق وهى: يسار هذا الرجل أولاً، ثم مخالطته الناس بمشاركتهم، والبيع لهم والشراء منهم، ثم أمره غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر ويحطوا الدَّيْنَ عنه، إلا أن العمل الأهم والذى عليه مدار الحديث هو العمل الأخير، وأن الغرض من ذِكر ما ذُكر معه ـ هنا ـ هو الحث بطريق غير

---

(١) ينظر : صـ٤٢ من البحث.

مباشر على العمل ما دام مشروعاً، وكذا الحث لأصحاب الأموال على استثمارها لما يعود به ذلك من نفع عظيم على المجتمع، وهذا ما يدعو إليه الإسلام ويحض عليه رسوله ـ ﷺ.

ويبلغ شوق السامعين مداه إلى معرفة خاتمة تلك القصة، ونتيجة هذا العمل الجليل والفريد بالنسبة لصاحبه، فيُورد النبى ـ ﷺ ـ ذكرها مباشرة وعلى الفور بدلالة عطفها بالفاء في قوله: "فقال الله ـ عز وجل ـ نحن أحق بذلك منه تجاوزوا عنه" ، وما أظن أن أحداً مِمَّن يسمع بهذه القصة يتوقع تلك النتيجة نظراً لبلوغها حدّاً متناهياً فى العِظم، ومن ثم صرّح النبي ـ ﷺ ـ بإسناد الأمر بهذا التجاوز إلى الله ـ تعالى ـ ليكسبه من التأكيد والتقرير ما به يثبت فى ذهن السامع وتطمئن نفسه إلى حصوله.

ولا يخفى ما يفيده التعبير بالجملة الاسمية فى قوله ـ ﷺ ـ حكاية عن الله ـ تعالى ـ "نحن أحق بذلك منه" من تأكيد الدلالة على دوام تلك الحال وثبوتها بالنسبة لله ـ عز وجل ـ إذ العفو شأنه ، والرحمة من صفاته كما أن فى أمره -سبحانه- ملائكته أن يتجاوزوا عن ذلك الرجل تناسباً على سبيل المجازاة مع أمر ذلك الرجل غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر. ولله المثل الأعلى. وذلك مما يؤكد ضرورة مقابلة الحسنة بمثلها أو بما هو أعظم منها إكراماً وتفضلاً.

* * *

ومن إخبار النبى ـ ﷺ ـ عن غيب الماضي ما جاء في سياق حديثه عن الدجال والإنذار منه، نرى ذلك فيما رُوى عنه ـ ﷺ ـ فى قوله:

"إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ بَعْدَ نُوحٍ إِلَّا قَدْ أَنْذَرَ الدَّجَالَ قَوْمَهُ وَإِنِّي أُنْذِرُكُمُوهُ" فَوَصَفَهُ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ فَقَالَ: "لَعَلَّهُ سَيُدْرِكُهُ بَعْضُ مَنْ رَآنِي أَوْ سَمِعَ كَلَامِي" قَالَ الصَّحَابَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَكَيْفَ قُلُوبُنَا يَوْمَئِذٍ. قَالَ: "مِثْلُهَا" يَعْنِي اليَوْمَ "أَوْ خَيْرٌ" (١).

يتضمن هذا الحديث الإخبار عن غيبين الأول: ماض، والآخر: مستقبل دعا المقام إلى الجمع بينهما لِما للمخبر عنه من أهمية بالغة نظراً لكونه من أعظم الفتن التى يبتلى الله ـ تعالى ـ بها عباده مع قدم الإنذار منها وكونها مما سيحدث فى آخر الزمان.

ولقد خص النبي ـ ﷺ ـ ما يتعلق بغيب الماضي بمزيد من التأكيد والتقرير نظراً لتعلق حدوثه بأكثر من نبى اختلفت أزمانهم وتباينت أماكنهم حيث قال: "إنه لم يكنْ نبى بعد نوح إلاّ

---

(١) الجامع الصحيح للترمذي. كتاب الفتن ، باب ما جاء فى الدجال، رقم : (٢٢٣٤).

قد أنذر الدجال قومه" فنرى اشتمال هذا القول على " إنّ" المؤكدة الداخلة على ضمير الشـــآن مما يحقق له من الحسن واللطف ما لا يُرى له إذاهى لم تدخل عليـــه فضـــلاً عـــن تقريرهـــا مفهومه وما يدل عليه.

ونرى اشتماله ــ أيضاً ــ على قصر طريقه النفي والاستثناء إمعاناً فى تـــأكيد حصـــول الإنذار من الدجال من كل نبى بعد نوح ــ عليهم جميعاً السلام ــ تنبيهاً على عِظـــم الخطـــب الحاصل وقت ظهوره، ومبالغة فى التخويف والترهيب منه كى يحذره كلُّ من يسمع به،

ومما يحقق المبالغة فى تقرير الإنذار المراد دخول حرف التحقيق "قد" على الفعل أنـــذر الدال على حصول مفهومه من المسند إليه وهو كل نبى بعد نوح ــ عليـــه الســـلام ــ ممـــا يضاعف من تأكيد الثبوت وتحقيق الوقوع للإنذار من الدجال.

وفضلاً عن ذلك فإن للتعبير بالجملة الفعلية "أنذر الدجال قومه" دلالة أكيدة علـــى تجـــدد حدوث الإنذار تبعاً لتتابع وجود الأنبياء المنذِرين، والغرض منه ــ أيضاً ــ هو التنبيه علـــى خطر المُنذَر منه، والتذكير به حتى لا يُنسى بمرور الأيام وتتابعها.

هذا:(وفى تقديم النبى ــ ﷺ ــ للمفعول الثانى للفعل أنذر وهو "الدجال" علـــى مفعولـــه الأول "قومه" دلالة على شدة الاهتمام بالمقدَّم لكونه هو المقصود بالحديث المذكور تنبيها علـى ضرورة الاحتراز منه حال ظهوره، ولَمَّا تحققت فائدة التقديم بأن حصـــل علـــم المخـــاطبين بأهمية المقدَّم نسق النبى ــ ﷺ ــ الكلام على الأصل فى قوله: "أنذركموه" ولم يُقدّم المفعـــول الثاني على الأول[1].)

وتواصلاً للأسلوب المتَّبع فى إثبات الإنذار من الدجال أتـــى النبـــى ــ ﷺ ــ بـــ "إنَّ" المؤكِّدة فى صدر ما يدل على إنذاره قومه ــ خاصة ــ من الدجال في قوله : "وإنِّى أنذركموه" مع ورود خبر إنّ جملة فعلية تنبيهاً على تجدد حدوث الإنذار من الدجال مـــن النبـــى ــ ﷺ ــ وتكرره، ولم يشأ ﷺ ــ أن يكثر من إيراد المؤكِّدات لإنذاره قومه برغم تحقق علمه بأن الدجال خارج فيهم لكون التأكيد السابق ذكره فى إنذار السابقين من الأنبياء من بعد نـــوح ــ عليـــه السلام ــ بمنزلة التأكيد ــ أيضاً ــ لإنذار أُمة الإسلام لعلمهم يقينا من نبيهم ﷺ بأن الدجال لم يظهر فيما مضى وسيظهر حتماً فيما يستقبل من الزمان.

وربما يقع فى نفس السامع لهذا الحديث أن نبى الله نوح ــ عليه السلام ــ لم يكن مـــن جملة من أنذروا أقوامهم من الدجال بناء على ما يوهمه قوله ــ ﷺ ــ : "إنه لم يكن نبى بعـد نوح إلا قد أنذر الدجال قومه".

---

(١) ينظر: شرح الطيبي، ٣٤٦٨/١١

والواقع أن قوله : "بعد نوح" ليس للاحتراز والتمييز، بل للبيان فلا يشعر إذن أن نوحاً ـ عليه السلام ـ لم يكن من جملة من أنذر، ولعل التنصيص على مَن بعده لما قد يكون من أن إنذارهم من الدجال كان أشد وأكثر[1]،

كما أن فى البيان النبوى ما يثبت صراحة إنذار نوح ـ عليه السلام ـ قومه من الدجال، وذلك فى مثل قوله ـ ﷺ ـ فى حديث آخر بعد أن ذكر الدجال: "إِنِّى لَأُنْذِرُكُمُوهُ، وَمَا مِنْ نَبِىٍّ إِلَّا وَقَدْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ، وَلَقَدْ أَنْذَرَ نُوحٌ قَوْمَهُ ، وَلَكِنِّى سَأَقُولُ لَكُمْ فِيهِ قَوْلاً لَمْ يَقُلْهُ نَبِىٌّ لِقَوْمِهِ: تَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ اللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ"[2].

وأما عن التوكيد لما ورد فى الحديث من الإخبار عن غيب المستقبل فالواقع أنه بعد أن بات فى نفس كل سامع شدة خطر الدجال مما سبق أكد النبى ـ ﷺ ـ حصول ظهوره فى أمته ـ خاصة ـ لكونها آخر الأمم وجوداً فى الحياة بقوله : "لَعَلَّهُ سيُدركه بعضُ من رآنى أو سمع كلامى" فلقد أفاد دخول السين على الفعل المضارع "يدرك" تأكيد حصوله ، وتقرير مفهومه مع تخليص معناه للاستقبال، وذلك نظراً لأن السين إذا دخلت على فعل محبوب، أو مكروه أفادت أنه واقع لا محالة ، فهى تفيد الوعد بحصول الفعل وذلك مقتضٍ توكيده وتثبيت معناه[3].

كما أن "لَعلَّ" وإن كانت تفيد الشك فى الحصول إلا أنها من رسول الله ـ ﷺ ـ بمعنى "عسى" ومن ثم فهى تفيد تحقق وقوع الخبر لا الشك فيه، إذ الترجى فى كلام الله ورسوله لتحقيق الوقوع والجزم به"[4].

ومما يقرر ذلك ويؤكده ما قيل : من أن "أو" فى الحديث ليست للشك بل للتنويع[5].

ومن ثم فإدراك الدجال وإن كان أمراً مستقبلاً غير معلوم على التحديد إلاّ أن الأشخاص الذين سيدركونه مجزوم بعلمهم من خلال اتصافهم بما ذكره النبى ـ ﷺ ـ من أوصاف فى قوله : "سيدركه بعضُ من رآنى، أو سمع كلامى" فأحد هذين الرجلين سيدرك الدجال لا محالة.

---

(١) ينظر: تحفه الأحوذى، ٩٨/٦ ـ شرح الطيبي ٣٤٦٨/١١.

(٢) الجامع الصحيح للترمذى. كتاب الفتن، باب ما جاء فى علامة الدجال، رقم (٢٢٣٥).

(٣) ينظر: الكشاف ١٦٢/٢ ـ مغنى اللبيب صـ ١٨٥ ـ معانى الحروف للرمانى صـ ٤٣ ـ الإتقان ١٩٨/٢ ـ البرهان ٤١٨/٢ ، ٢٨٠/٤، ٢٨١ ـ عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ٢٢١/١.

(٤) ينظر : المفهم ٤٤٠/٦ ـ عمدة القارى ٢٥٦/١٤ ـ لسان العرب ، مادة : (لعل).

(٥) ينظر : مرقاة المفاتيح ٤١٤/٩ ـ تحفة الأحوذى ٩٨/٦.

وإن كان قد انقضى زمن من رأوا النبى ــ ﷺ ــ فالتأكيد يختص حينئذ بالطائفة الأخرى وهم من سمع كلامه ــ ﷺ ــ من خلال وصوله إليهم وعلمهم به وبرسالته ولو بعد حين.

وبعد هذا التأكيد الصريح لخروج الدجال فى هذه الأُمة يستفهم الحاضرون من الصحابة حينئذ عن أمر شغل بالهم واستحوذ على تفكيرهم بعد سماعهم ما سمعوا حيث قالوا : "يا رسول الله فكيف قلوبنا يومئذ؟" سؤال يُظهر مدى صفاء قلوب السائلين، واهتمامهم بما يصلح أمر دينهم أكثر من غيرهم ممن يهتمون بما يُصلح أمر دنياهم وهم اليوم كثير،والتعبير بالقلوب وإرادة الحال فيها من اعتقاد جاء على سبيل المجاز المرسل لعلاقة المحلية إشارة إلى أهمية المحل وعِظم شأنه،ويجيب النبى ــ ﷺ ــ جواباً موجزاً حيث قال : "مثلها" ويُفسّر راوى الحديث المراد بالمثلية بقوله "يعنى اليوم" وعلى ذلك فقد شبه النبى ــ ﷺ ــ قلوب المسلمين الذين يعاصرون خروج الدجال بقلوب الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ مشيراً بذلك إلى تأكد وجود الخير وكثرته آنذاك، على ما يحمله هذا القول الموجز من بشرى عظيمة الشأن يسعد بها كل مسلم، وتزداد سعادته بسماعه قوله ــ ﷺ ــ فى تتمه الجواب: "أوخير" وما يفيده ذلك من تقرير بلوغ الخير فى قلوب المسلمين حين خروج الدجال درجة تفوق ما كان عليه الصحابة من خير وتقى، يُفهم ذلك من إيثار التعبير بصيغة التفضيل "خير".

(و "أو" ــ هنا ــ الراجح فيها أنها من كلام النبى ــ ﷺ ــ ، وأنها ليست للشك بل للتنويع)[1] تنبيها على تفاوت درجة الخير فى القلوب يومئذ ،

* * *

ومن غيب الماضى الذى أطلع الله ــ تعالى ــ نبيَّه عليه قوله ــ ﷺ ــ :

"إِنَّ اللهَ حِينَ خَلَقَ الخَلْقَ كَتَبَ بِيَدِهِ عَلَى نَفْسِهِ إِنَّ رَحْمَتِى تَغْلِبُ غَضَبِى"[2].

هذا الخبر الغيبى يتعلق بالماضى البعيد إذ يرجع إلى الزمن الأول الذى لا يعلمه تحديداً إلا الله ــ تعالى ــ ومن ثم عبّر عنه النبى ــ ﷺ ــ بظرف الزمان "حين" الدال على الإبهام وعدم التعيين.

---

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ، ٩٨/٦.

(٢) الجامع الصحيح للترمذى . كتاب الدعوات ، باب خَلَقَ اللهُ مائة رحمة، رقم : (٣٥٤٣).

ونظراً لأهمية هذا الخبر نرى النبى ــ ﷺ ــ قد ابتدأه بـ "إنّ" المؤكّدة لفتاً لانتباه السامع، ودعوة له إلى الإصغاء والتدبر لمعرفة المغزى من وراء التوكيد للمخبَر عنه، فالتوكيد بإنّ، والإسناد للفظ الجلالة ، وإبهام الزمن المخصوص بالفعل المراد كل ذلك يقع موقع التشويق المؤدِى إلى تقرير هذا الخبر الذى عبّر عنه النبى ــ ﷺ ــ بما يفيد إيجابه وإلزام العمل به فى قوله: "كتب بيده على نفسه إنّ رحمتى تغلب غضبى" فمقرِّر الإيجاب والإلزام هو نفسه المُوجَب عليه، والمُلزَم وهو الحق ــ سبحانه وتعالى ــ ، وبعد هذا الإلزام الذاتى تتطاول أعناق السامعين ويشرئبُّون لمعرفة الموجَب والملزَم به فإذا هو تقرير للرحمة ، وتأكيد لتغليب جانب الأخذ بها على جانب الغضب والعمل بما يقتضيه بصورة أبدية دائمة لا تَحوُّل عنها ولا انفكاك، يُفهم ذلك من التعبير بـ "إنَّ" و "اسمية الجملة" فى قوله ــ ﷺ ــ نقلاً عن ربّ العِزّة ــ سبحانه ــ : "إنّ رحمتى تغلب غضبى"، ونلمح ــ هنا ــ أن المسند إليه وهو اسم إنّ قُدِّم على خبره الفعلى لإفادة تقوية المعنى المراد وتقريره فى نفس السامع مبالغة فى إسعاده وتبشيره،

كما أن فى التعبير بالفعل المضارع "تغلب" دلالة على التجدد والحدوث ، إذ يُفيد تجدد التصارع بين الرحمة والغضب على الأخذ بأيِّهما عند تجدد كل فعل يُعتقد مقابلته بالعقاب والغضب من الله ــ تعالى ــ مع تحقق الأخذ بالرحمة وتغليب جانبها على جانب الغضب.

هذا: وإن اعتُرض على ذلك بأنه قد ثبت العذاب فى حق كثير من الناس ممن مضى زمانهم، وفى أيامنا هذه نرى كثيراً من المصائب والكوارث التى تصيب البلاد والعباد، فلِمَ لَمْ يُرحم من ثبت فى حقهم العذاب قديماً؟ ولِمَ لمْ تُمنع المصائب والكوارث أن تُصيب مَن تصيبهم عملاً بتلك الرحمة التى لا ينقطع الأخذ بها، والعمل بمقتضاها؟

والجواب : أن من رحمة الله ــ تعالى ــ بعباده الثابت فى حقهم العذاب أنه قد أمهلهم حتى يرجعوا عن غيِّهم وضلالهم، وعندما عتوا وتجبَّروا ظناً منهم أن إمهالهم إنما هو إهمال وترك أخذهم الله ــ تعالى ــ أخذ عزيز مقتدر، أمّا عن المسلمين الذين تصيبهم الكوارث والمصائب قديماً ، أو حديثاً فإن ذلك قد يكون من قبيل الابتلاء، أو حتى على التطهير لهم من ذنوب وأوزار سالفةٍ وهكذا.

هذا : والتعبير بالغلبة ــ هنا ــ فى جانب الرحمة والغضب وهما عَرَضٌ ومعنى لا جوهر وذات إنما هو على سبيل المجاز للمبالغة فى إثبات وتقرير رحمة الله ــ تعالى ــ وتأكيد الأخذ بها، فلقد شبه النبى ــ ﷺ ــ الرحمة والغضب بفارسين متنافسين على الفوز بشئ ذى قيمة فغلبت الرحمة الغضب لتميزها بتوجيه الإرادة العليا إليها[1].

---

(١) ينظر : تحفة الأحوذى ، ٥٨/٩.

وسبيل هذا التشبيه هو الاستعارة المكنية التى تُخيِّلُ للسامع المنافسة والمغالبة حتى يركز فى ذهنه أن الرحمة المأخوذ بها والمعمول بمقتضاها لم تُصب صاحبها إلا بعد صراع ومغالبة حُسمت لصالحها فيتأكد بذلك فى نفسه ثبوت رحمه الله ــ تعالى ــ بخلقه وإرادته دائماً ما يصلح عليه حالهم، وتقرُّ به أعينهم.

وذكر هذا المعنى بتلك الصورة تضع الصراع أمام أعين المخاطبين مما يسرع بفهم المعنى لديه وتأكده عنده "فالمنظر يلعب دوراً إضافياً فى المدخل العاطفى المحدد إلى الموضوع والغرض"(١)

ولا يخفى ما تفيده إضافة المولى ــ عز وجل ــ صفتى الرحمة والغضب إلى نفسه ــ تعالى ــ فى قوله : "رحمتى ، وغضبى" من الاختصاص المؤذِن بتعظيم كلتا الصفتين وتمييزهما عن غيرهما مما يتصف به كثير من مخلوقاته ــ عز وجل ــ من رحمة وغضب.

هذا : ولا ينبغى أن يُفهَم الحديث على أنه دعوة إلى التكاسل عن العمل اعتماداً على سعة رحمه الله ــ تعالى ــ وتغلبها على غضبه كما هو مُصرح به، بل هو فى مجمله دعوة إلى العمل النافع، والاجتهاد فى الطاعات اعترافاً بفضله ــ تعالى ــ وطمعاً فى رحمته.

---

(١) نظام التصوير الفنى فى الأدب العربى صـ ٤١.

المبحث الثانى

التوكيد فى مقام الحديث عن غيب الحاضر

المبحث الثانى

التوكيد فى مقام الحديث عن غيب الحاضر

الحاضر فى الأصل مشهد لا غيب ولكن يحدث أن تقع أمور فى هذا الزمن وتغيب عن البعض ، أو عن الكل إذ من الصعب بل من المستحيل أن يحيط الإنسان علماً بكل ما يحدث فى زمنه الحاضر الذى يحياه فما يكون مشهداً عنده فهو غيب -فى الغالب -عند غيره ممن لا يجاورونه ولا يعيشون معه فى مكان واحد، هذا بالنسبة لما يحدث فى زمن الحاضر ويغيب علمه عن البعض،

أما بالنسبة لما يحدث فى زمن الحاضر ويغيب علمه عن الكل فهذا ما يسمى فى الأصل غيباً،

والناظر فى السنة النبوية يجد أن فيها أحاديث اخترق بها النبي -ﷺ- حجب الغيب بإذن ربه -سبحانه-فأبان بها عن أشياء غاب علمها عن البعض وأخرى غاب علمها عن الجميع فلا إطلاع لأحد عليها برغم حدوث هذه وتلك فى زمن الخطاب، فلا هى أحداث ماضية أو مستقبلة حتى يقال إن العلة فى عدم العلم بها انقضاء زمانها أو أنها لم تحدث بعد،

وتقريراً منه-ﷺ- لصدق ما يخبر به مما غاب أمره فى زمن الحاضر نراه قد دعم قوله بمؤكد أو أكثر ليأنس بذلك كلُّ مُصَدِّقٍ، وليكون حُجة تعمل على إقناع غيره بالتصديق، ولِيجذب بذلك -أيضاً- انتباه السامعين، وليكون التوكيد دلالة على أهمية المعنى المراد ليعيره السامع من الانتباه ما به يتمكن فى ذهنه ويرسخ فى نفسه.

هذا: ومما غاب أمره عن البعض فى زمن الحاضر نظراً لبُعد مكان حدوثه عمن وُجِّه إليهم الخطاب ما رُوى عن عِمْرَان بن حصين -رضي الله عنه- أنه قال:

قال رسول الله -ﷺ-: "إِنَّ أَخَاكُمُ النَّجَاشِيَّ قَدْ مَاتَ، فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلَيهِ".

فَقُمْنَا فَصَفَفْنَا كَمَا يُصَفُّ عَلَى المَيِّتِ، وَصَلَّيْنَا عَلَيهِ كَمَا يُصَلَّى عَلَى المَيِّتِ[1].

---

(١) الجامع الصحيح للترمذى كتاب الجنائز، باب ما جاء فى صلاة النبى -ﷺ- على النجاشى رقم (١٠٣٩) النجاشى: اسمه أصحمة، وهو ملك من ملوك الحبشة معدود فى الصحابة -رضى الله عنهم- وكان ممن حسن إسلامه ولم يهاجر،ولا له رؤية، فهو تابعى مِن وجه، صاحب مِن وجه آخر، وقد توفى فى حياة النبى -ﷺ- فصلى عليه بالناس صلاة الغائب، ولم يثبت أنه صلى الله عليه وسلم- صلى على غائب سواه سير أعلام النبلاء ١/٤٢٨، ٤٢٩.

لقد ناصر النجاشى -ﷺ- الإسلام منذ بدء الدعوة إليه بإحسانه إلى من هاجر إلى بلاده من المسلمين، وإكرامه إياهم ولقد توج ﷺ تلك الأعمال الحسنة بأن اعتنق الإسلام وسار فى حياته حسب تعاليمه، فكان بذلك ضمن سفراء الإسلام فى تلك البلاد البعيدة. بلاد الحبشة.

ومما يدل قطعاً على عظمة هذا الرجل وعلو منزلته هذا الحديث الذى بين أيدينا إذ أن إخبار الله تعالى نبيه -ﷺ- بموته عن طريق الوحى يُعد تشريفاً وتكريماً له، فما كل من مات بعيداً عن مكان رسول الله -ﷺ- أعلمه الله -تعالى- بموته.

هذا: ولقد غاب عن المسلمين حينئذ علم موت النجاشى برغم حدوثه فى زمانهم نظراً لانعدام وسائل الاتصال السريعة التى تنقل الأخبار وقت حدوثها كما نشاهد الآن، ومن ثم بالغ النبى -ﷺ- فى تحقيقه وإثباته بأن قرن ذكره بمؤكِّدين حرِيَّين بتقريره فى نفس كل سامع وهما "إنَّ" الداخلة على جزء الجملة الاسمية أولاً فى قوله: "إنّ أخاكم النجاشى" "وقد" الداخلة على الجملة الفعلية الواقعة موقع الخبر لإنّ وذلك فى قوله: "قد مات" وكان من الممكن الاكتفاء بأحد المؤكِّدين عن الآخر ولكن آثر النبى -ﷺ- الإتيان بهما معاً إشعاراً بأهمية الخبر لتعلقه أولاً بشخصية مؤثرة فى تاريخ الإسلام، ولكونه ثانياً مما غاب علمه عن جميع مَن خُوطِبوا به حينئذ وفيهم من هم بحاجة إلى التوكيد والتحقيق، فراعى ﷺ ذلك سداً لمسالك الشيطان إلى نفوسهم حتى إذا عَرَض لهم بالتشكيك عارضوه بالتصديق.

ونلمح هنا أن المسند إليه وهو اسم إنّ ورد مُقدَّماً على خبره الفعلى وذلك بغرض تقوية معناه، وتقرير مدلوله فى النفس، وكذا إشعاراً للسامع بأهميته ليحرص بدوره على معرفة المخبَر به عنه، وإذا به نعى يتطلب الدعاء بالرحمة لصاحبه وفاءً بحق الأخوة التى أكد النبى ﷺ حصولها بنعت النجاشى بها فى مبدأ الحديث.

ومن ثم أوجب ﷺ على صحابته حينئذ القيام بالصلاة عليه بقوله:"فقوموا فصلوا عليه" (إذ يقتضى هذا الأمر الوجوب) [1] وفى ذلك تأكيد على المأمور به، ومبالغة فى طلب حصوله.

وفى عطف قوله -ﷺ-: "فقوموا فصلوا عليه" وهو إنشاء على قوله: "أخاكم النجاشى قد مات" وهو خبر دلالة أكيدة على أن المعطوف بسبب من ا لمعطوف عليه إذ الداعى للأمر بالصلاة على النجاشى هو المُخبَر به أولاً من أُخوَّته، فضلاً عن ذلك فإن المتحدَّث عنه فى القولين واحد وهو النجاشى -رحمه الله وبذلك يتحقق وجود الجامع بين الجملتين المختلفتين

---

(١) ينظر المفهم، ٢/٦٠٩.

خبراً وإنشاءً، ولا يخفى ما يفيده اختيار الفاء للعطف بها -هنا- مع تكررها من الدلالة على تأكيد طلب السرعة فى التزام المأمور به وفورية حصوله مبالغة فى تكريم النجاشى- رحمه الله- وتقريراً لمبدأ التعجيل بأداء الحقوق والواجبات حتى لا تفوت بالتأجيل الذى قد يترتب عليه نسيانها أو تأخيرها بالانشغال عنها.

ويصف لنا الصحابى الجليل راوى الحديث سرعة استجابة المخاطبين لأمر النبى -ﷺ- وانقيادهم له دون مناقشة أو جدل كما كان يحدث من بنى إسرائيل مع أنبيائهم وذلك بعطفه ما كان من الصحابة-رضى الله عنهم-على الأمر الموجَّه إليهم من النبى -ﷺ- بفاء السرعة فى قوله: "فقمنا فصففنا عليه كما يُصف على الميت وصلينا عليه كما يصلى على الميت".

ولقد بيَّن الراوى بهذا القول -أيضاً- الكيفية التى تمت بها الصلاة على النجاشى مع عدم مشاهدة جسمانه، وبُعد مكانه من أنها نفس الكيفية التى يُصلَّى بها على الميت الحاضر.

ولقد راعى الصحابى راوى الحديث غرابة تلك الصلاة على الغائب لعدم معرفتهم لها من قبل فأكد اتحادها مع الصلاة على الحاضر بتشبيهها بها فى الصورة والكيفية فأما مشابهتها لها فى الصورة فذلك قوله: "كما يُصف على الميت" وأما مشابهتها لها فى الكيفية فذلك قوله: "كما يُصلَّى على الميت" فهذا القول من الراوى يقرر هيئة وكيفية تلك الصلاة، ويحسم أى خلاف يدور حول هذه المسألة لكونها قد حسمت من قبل.

* * *

ومما غاب علمه عن البعض فى زمن الحاضر وورد الإخبار به مؤكَّداً من النبى -ﷺ- ما يُروى من أن علياً بن أبى طالب -رضي الله عنه- قال: "بَعَثَنا رَسولُ اللهِ -ﷺ- أنَا وَالزُّبَيْرَ، وَالمِقْدَادَ بن الأسْوَدِ، فقَالَ: "انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ فِيْهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا فَأْتُونِي بِهِ"" فَخَرَجْنَا تَتَعَادَىٰ بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى أَتَيْنَا الرَّوْضَةَ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الكِتَابَ فَقَالَتْ: مَا مَعِي مِنْ كِتَابٍ فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الكِتَابَ، أَوْ لَتُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ، فَأَخْرَجَتْهُ مِن عِقَاصِهَا، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- فَإِذَا هُوَ مِنْ حَاطِبِ بنِ أَبِى بَلْتَعَةَ إِلَى نَاسٍ مِنَ المُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ النَّبِى -ﷺ- فَقال: "مَا هَذَا يَا حَاطِبُ؟" قَالَ: لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّى كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقاً فِى قُرَيْشٍ، وَلَمْ أَكُنْ مِن أَنْفُسِهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ المُهَاجِرِينَ لَهُم قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِم وَأَمْوَالَهُم بِمَكَّةَ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِى ذَلِكَ مِنْ نَسَبٍ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ فِيهِمْ يَداً يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِى، وَمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ كُفْراً وَلَا ارْتِدَاداً عَنْ دِينِى وَلَا رِضاً بِالكُفْرِ

بَعد الإسلام، فقال النبىُ -ﷺ-: "صَدَقَ" فقال عُمَرُ بنُ الخطّابِ -رضي الله عنه-: دَعْنِى يَا رَسُولَ اللهِ أَضرِبْ عُنقَ هَذَا المُنَافِقِ، فَقَال النبىُ -ﷺ-: "إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرَاً، فَمَا يُدْرِيْكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ فَقَالَ الراوِى: وَفِيهِ أُنْزِلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء ﴾ (١). [الممتحنة، آية (١)]

لقد أخفى النبى -ﷺ- خبر مسيره إلى مكة فاتحاً حتى يتحقق له ما أراد من مفاجأة قريش وإجبارها على التسليم دون أن تراق دماء أىٍ من الفريقين، ومع مبالغته -ﷺ- فى الإخفاء حدث أن كتب حاطب بن أبى بلتعة -رضي الله عنه- كتاباً إلى أهل مكة يخبرهم فيه بمسير النبى -ﷺ- إليهم فاتحاً وأرسله مع امرأة وأمرها بإخفائه.

ويُعلِم رُبنا-عز وجل- رسولَه -ﷺ- بأمر هذا الكتاب فيرسل من فوره ثلاثة من أصحابه فى طلبه قائلاً لهم: "انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإنّ فيها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فأتونى به" محدداً لهم مكان الكتاب وهيئة حامله ومن ثم كان إخباره بذلك من أعلام نبوته -ﷺ-.

ولِما يُثيره أمرُ الصحابة الثلاثة بالانطلاق إلى المكان المذكور من دهشتهم -خاصة- ودهشة من كان حاضراً حينئذ لخفاء علة هذا الأمر نرى النبى -ﷺ- قد راعى غرابة العلة الباعثة عليه نظراً لتضمنها الإعلام بغيب خفي أمره عنهم فأتى بها مؤكَّدة بإنّ حملاً للنفوس على تصديقها، ورغبة فى انفعال الصحابة خاصة منهم الثلاثة المبعوثين بالأمر المذكور لما يترتب على ذلك من تدارك حدوث ضرر عظيم.

ولقد أكد ا لنبى -ﷺ- وجود المرأة الحاملة للكتاب فى المكان المأمور بالتوجه إليه- روضة خاخ- من خلال التقديم للجار والمجرور "فيها" على اسم إنّ "ظعينة" على سبيل القصر مما يقطع بحتمية وجودها فى نفس المكان لا تتعداه إلى غيره وقد كان، يتبين لنا ذلك من قول

---

(١) الجامع الصحيح للترمذى كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة الممتحنة رقم (٣٣٠٥) روضة خاخ: اسم موضع بين الحرمين، الظعينة: المرأة فى الهودج، سُميت به على حد تسمية الشئ باسم غيره لقربه منه، وقيل: سميت المرأة ظعينة لأنها تظعن مع زوجها وتقيم بإقامته كالجليسة، ولا تُسمى ظعينة إلا وهى فى هودج، وقيل كل امرأة ظعينة فى هودج أو غيره- تتعادَى: بمعنى تتسارع وتتسابق والعداء: هو الطلق الواحد للفرس- عِقاصها: ضفائرها جمع عقيصة، أو عقصة، وقيل هى الخيط الذى تعقص به أطراف الذوائب والأول أوجه - مُلْصَقَاً: المُلْصَق هو الرجل المقيم فى الحى وليس منهم بنسب- يدا: أى نعمة وإحساناً ومِنَّةً وصنيعةً. ينظر لسان العرب ، المواد. [خوخ، ظعن، عدا، عقص، لصق، يدى]

على -ﷺ- "فخرجنا تتعادى بنا خلينا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة" فضلاً عن ذلك فإن لِتعريف لفظ "روضة" فى هذا القول بأل المفيدة للعهد الذكرى لَيؤكد أيضاً عثور الملاحقين الثلاثة على تلك المرأة فى نفس المكان السابق توجيههم إليه مما يدل دلالة أكيدة على كمال علم النبى -ﷺ- بمكانها، ويزيد من درجة التوثيق لصدق ما أخبر به فى هذا الحديث.

هذا: وفى التعبير عن المرأة الحاملة للكتاب بلفظ ظعينة، تقرير لعلمه ﷺ بحالها أيضاً إذ أن الظعينة (هى المرأة التى فى الهودج ولا يقال ظعينة إلا وهى كذلك) [1] ومن ثم اختار ﷺ للتعبير عن تلك المرأة ما يناسب هيئة ارتحالها.

وإن كان لفظ "ظعينة" يطلق -أيضاً- (ويراد به الهودج وحده، أو المرأة بلا هودج) [2] فإن الأقرب للمراد به هنا هو المرأة فى الهودج سميت بذلك على سبيل المجاز المرسل لوجودها فيه من باب التعبير عن الشئ باسم محله، أو مجاوره، إذ لو أريد به -هنا- الهودج وحده لم يكن لإرادته معنى، وإن أريد به المرأة بلا هودج قوبل ذلك بأن غالب سفر النساء أن يكن فى هودج يحتويهن، ومن هنا كان للتعبير بهذا اللفظ فائدة الدلالة على هيئة وحالة المرأة المقصودة كما تبين.

ويحدد النبى -ﷺ- هدف المبعوثين الثلاثة بقوله: "فخذوه منها فأتونى به" مقرراً فى نفوسهم من خلال التعبير بصيغة الأمر أهمية الكتاب وخطر فواته منهم.

ولا عجب بعد ذلك أن يُقابِل على -ﷺ- تأكيد المرأة نفىَوجود كتاب معها بـ "من" الزائدة لهذا الغرض فى قولها: "ما معى من كتاب" بتأكيد مبالغ فيه حال إثباته وجود الكتاب معها فى قوله: "لَتُخْرِجِنَّ الكتابَ أَوْ لَتُلْقِيَنَّ الثيابَ"[3]. جازماً بصدق رسول الله -ﷺ فيما أخبر به، وكذب المرأة فيما ادعته، ومهدداً لها بأمر لم تتوقعه من أى مطارد مسلم لها وهو

---

(١) ينظر: لسان العرب مادة: [ظعن].

(٢) ينظر: السابق نفسه والهودج من مراكب النساء مقبب وغير مقبب، يصنع من العصى ثم يجعل فوقه الخشب فيقبب، ينظر لسان العرب مادة [هدج].

(٣) كان القياس أن يقال: "لَتُلْقِنَّ" ومن ثم فتأويل الفتح فىالرواية المذكورة أنه جاء حملاً على المؤنث الغائب على طريق الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ينظر عمدة القارى ١٤/٢٥٥- مرقاة المفاتيح ١٠/٥٩٦- تحفة الأحوذى ٨/٢٩٣. وفى الالتفات إلى الغيبة حين التخويف بخلع الثياب تلاؤم مع أخلاق الصحابة وعذوفهم عن الخطاب بذلك مباشرة وكأن الأمر بخلع الثياب حينئذ موجه إلى غائبة وذلك من بلاغة الإمام على -ﷺ-.

تجريدها من ثيابها[1]، ومن ثم بادرت على الفور بإخراج الكتاب من مكان إخفائه وهو مكان لم يكن لهم الوصول إلى الكتاب الكامن فيه لولا هذا التهديد، يدل على ذلك قول علي -رضي الله عنه-: "فأخرجته من عِقاصها".

وحينئذ وبعد افتضاح أمر الكتاب للجميع يوجّه النبى -ﷺ- لصاحبه سؤال تعجب وإنكار لفعله فى قوله: "ما هذا يا حاطب"؟ مريداً بذلك التلميح بتجاوزه، وأنه ما كان لمثله أن يصدر عنه فعل كهذا، ويُجيب حاطب -رضي الله عنه- جواباً غير كاذب فيه حيث بيَّن أن علة إرساله هذا الكتاب إلى قريش هى أن يتخذ بذلك عندهم يداً يحفظون بها قرابته فى مكة إن كان النصر حليفهم فى تلك المعركة الحاسمة خاصة وأنه كان حليفاً لقريش ولم يكن حقيقة منهم حتى يعتدوا بقرابته فى حفظ أهله.

ونلمح هنا إطالة حاطب -رضي الله عنه- جوابه عما سُئِل عنه رغبة منه فى تحقيق دفع التهمة بالنفاق عن نفسه، وتأكيداً على براءته مما ظنه القوم فيه حينئذ.

ويُقابِل الرءوف الرحيم جواب حاطب بقوله: "صدق" فى إيجاز شديد نلمح منه رغبته -ﷺ- أيضاً فى تحقيق صدق حاطب -رضي الله عنه- وتمكين هذا المعنى فى ذهن السامع من خلال إفراده بالذكر حتى يصبح للكلمة الدالة عليه صدى يتردد فى أذن السامع يؤكد مفهومها، ويقرر ما تدل عليه.

(وذلك نظراً لأنه قد تَعْرِض للإنسان الكبير فترات يصغر فيها، والله -تعالى- أبرُّ بعباده من أن يؤاخذهم بسورات الضعف التى تعروا نورهم فيخبو، وسعيهم فيكبو، وهكذا رسوله -ﷺ- على أن حاطباً -رضي الله عنه- شفع له ماضيه الكريم فجُبِرَت عثرته، وأمر النبى -ﷺ- المسلمين أن يذكروا الرجل بأفضل ما فيه، وألاَّ تُنسى الحسنات والفضائل لِمن يخطئون حيناً بعد أن أصابوا طويلاً [2].)

---

(١) استند العلماء إلى هذا الحديث فى القول بجواز تجريد العورة عن السرة عند الحاجة لعدم إنكار النبى -ﷺ- عَلَى عَلِيٍّ -رضي الله عنه- وصاحبيه ما هددا به المرأة. ينظر عمدة القارى ١٤/٢٥٧- عارضة الأحوذى ١٢/١٣٩.

(٢) ينظر: فقه السيرة، للشيخ/ محمد الغزالى، صـ ٤٢٠، ٤٢١،ط ٢، دار الدعوة، الإسكندرية ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

ومن ثم قال لعمر بن الخطاب -رضي الله عنه- حينما استأذنه فى ضرب عنق حاطب -رضي الله عنه-: "إنه قد شهد بدراً فما يُدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: "اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم"" مؤكداً بـ "إنّ"و "قد" ثبوت ما يستند إليه فى إقرار العفو عن حاطب- رضي الله عنه- وبراءته من النفاق ومن الارتداد، والرضا بالكفر بعد الإسلام، ومما يضاعف من براءته ويؤكد ضرورة العفو عنه التحقيق المفهوم من التعبير بـ "لعل" هنا لما قيل:(من أن الترجى فى كلام الله ورسوله لتحقيق الوقوع والجزم به، وأن معنى الترجى هنا، إنما هو راجع إلى المخاطب وهو عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-)[1] ولما قاله ابن الأثير عن "لعل" فى هذا الحديث: "ظن بعضهم أن معنى لعل هاهنا من جهة الظن والحسبان وليس كذلك، وإنما هى بمعنى عسى و(عسى ولعل) من الله تحقيق[2] "

هذا: وفى التعبير باسم الموصول "ما" فى قوله: "اعملوا ماشئتم" تقرير للغرض المسوق له الكلام وهو المبالغة فى تكريم أهل بدر وتشريفهم نظراً لإفادته هنا الشمول والعموم.

مع التنبيه على أن هذا القول لا ينبغى أن يفهم على أنه إطلاق فى الذنوب وإباحة لكل الأعمال، بل إن مراده هو التبشير بمغفرة الذنوب إن صدرت عنهم[3].

ولقد قرر النبى -ﷺ- تحقق حصول المغفرة المُخبَر بها عن الله -تعالى- من خلال التعبير بالفعل الماضى "غفر" فى قوله: "فقد غفرت لكم" مع المبالغة فى تأكيد ما يدل عليه بدخول "قد" المفيدة للتحقيق عليه، فالمغفرة المرادة مؤكَّد حصولها مقدما، ولا أدل من ذلك على عظيم تكريم الله، تعالى- لأهل بدر ومنهم حاطب- رضي الله عنه-.

* * *

وأما عن غيب الحاضر الذى خفى علمه عن الجميع، وتفرَّد النبى -ﷺ- بعلم حصوله فخاطب به من غاب عنهم بأسلوب التوكيد تحقيقاً لحدوثه وتقريراً له فى نفوسهم، فمن ذلك ما روى أنه ﷺ مر على قبرين فقال:

إِنَّهُمَا يُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا هَذَا: فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، وَأَمَّا هَذَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ"[4].

---

(١) ينظر المفهم ٦/٤٤٠- عمدة القارى ١٤/٢٥٦ تحفة الأحوذى ٨/٢٩٤.

(٢) النهاية فى غريب الحديث والأثر، مادة [لعل] وينظر لسان العرب، مادة [لعل].

(٣) ينظر: المفهم ٦/٤٤٢- تحفة الأحوذى ٨/٢٩٤.

(٤) الجامع الصحيح للترمذى، كتاب الطهارة، باب ما جاء فى التشديد فى البول، رقم: ٧٠

فما يحدث داخل القبور غيب لا اطلاع لأحد عليه برغم انعقاده فى زمن الحاضر بالنسبة لأهل كل زمان، ولا توقُّف لأحداث القبور على اختلافها نعيماً وعذاباً، تلك عقيدة راسخة فى نفس كل موقِن بعذاب القبر ونعيمه، وعلى ذلك ربَّى النبى -ﷺ- أصحابه وإذا به ذات يوم وهو سائر ومَن معه يُعْلِمُهُم بحال صاحبى قبرين وما هما فيه من عذاب، ومن ثم راعى النبى -ﷺ- خفاء هذا الأمر فأورده مؤكَّداً بما يناسب كونه غيباً مع حدوثه فى زمن الخطاب فقال مشيراً إلى القبرين: "إنهما يعذبان" مقدماً المسند إليه اسم إنَّ على خبره الفعلى بقصد تقوية المعنى المراد وتقريره فى النفس.

ومرجع الضمير هنا إما صاحبى القبرين وإن كانا غير مذكورينِ إلا أن السياق يدل عليهما وأنهما المعنيان لا غيرهما.

وإما أن الضمير يعود على القبرين نفسهما على اعتبار إطلاق المحل وإرادة الحال فيه على سبيل المجاز المرسل[1]، وفى ذلك دلالة على شمول العذاب وإحاطته بالمُعذَّبَيْنِ مع تأكيد حصوله لهما.

وحينئذ تُختَبر عقائد الرجال فلا يملك الصحابة -رضى الله عنهم- سوى التسليم بصدق هذا الخبر لعلمهم أولاً بطلاقة قدرة الله -تعالى- وتسييره الكون حسب مشيئته وإرادته، ثم يقينهم بصدق المخبِر ﷺ.

ويضاف إلى ذلك تأكيد النبى -ﷺ- هذا الخبر بمؤكِّد درج المتكلمون على استعماله وهو "إنَّ" والغرض منها هو تقرير المخبَر به وتأكيده تأكيداً يدفع عنه الشك أو الإنكار ممن يسمعه، فضلاً عن ذلك ما تفيده "إنَّ" من لفت انتباه السامع إلى أهمية المعنى المراد وهو التشديد فى التحذير من التهاون بأمر الاستتار والاستبراء من البول، وكذا السعى بين الناس بالنميمة لما يسببه ذلك من عذاب محقق الوقوع.

ومما يؤكد -أيضاً- خبر تعذيب صاحبى القبرين جملة النفى الواردة فى قوله -ﷺ-: "وما يعذبان فى كبير" إذ يفيد هذا القول تقرير ثبوت التعذيب بعد نفى كون السبب فيه كبيراً، فكأنه -ﷺ- كرر بذلك ذكر الجملة الأولى "إنهما يعذبان " مبالغة فى تأكيد ما تدل عليه.

ويملأ الشوق نفوس السامعين حينئذ إلى معرفة الذنب المنتفى كبره الثابت التعذيب بسببه نظراً لمشقة التحرز من الصغائر ودنايا الذنوب، فيأتيهم قوله ﷺ "أما هذا فكان لا يستتر

---

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ١/١٧٣.

من بوله، وأما هذا فكان يمشى بالنميمة" بالبيان والتأكيد للمعنى الذى يهدف إليه النبى -ﷺ- وهو ضرورة التحرز من البول، والبعد عن النميمة حتى يشتد حرص السامع على تجنب الوقوع فى أى من ذلك.

ونظراً لما يحمله هذا القول من الإفصاح عن غيب خفى علمه عن المخاطبين وإن كان خفاؤه فى هذه المرة بسبب مضى زمن حدوثه إذ الفعلين المذكورينِ والمنسوب كل واحد منهما إلى أحد المقبورينِ دون الآخر حدثاً فيما مضى، نرى النبى -ﷺ- قد أكد حصول كل من الذنبين من صاحبيهما بما يتلاءم مع حصول التعذيب بسببيهما فضلاً عن خفائه فأتى بـ "أمَّا" التفصيلية المؤكّدة مع تكريرها لكونها، هنا تُكسب الكلام فضل توكيد من جهة تحقيق الإشارة للمشار إليه مع تقرير ثبوت الذنبين المنصوص عليهما مبالغة فى لفت انتباه السامعين حتى يحذروا الوقوع فيهما.

ولا يخفى ما يفيده تعريف المسند إليه هنا باسم الإشارة "هذا" مكرراً من القصد إلى تمييزه أكمل تمييز من خلال إحضاره فى ذهن السامع بواسطة الإشارة تأكيدا على اختصاص كل من صاحبى القبرين بما أُسند إليه.

وتأكيد النبى -ﷺ- حصول التعذيب بسبب عدم التنزه من البول، وكذا النميمة- خاصة- أراه وإن كان واقعاً فعلاً إلا أنه قد يكون من قبيل الرمز إلى نوع من الذنوب حتى لا يتهاون الناس بها، وحتى يحرصوا على تجنب الوقوع فيها، ويعتادوا ذلك كى يصبح الحذر من الذنوب بوجه عام فيهم طبعاً وعادة .

وبعد فتأكيد حصول التعذيب بسبب هذين الذنبين والإعلام به أوقع فى الزجر عنهما، وأبلغ فى النهى المراد تقريره والتعبير بالخبر المراد به الإنشاء يفيد المبالغة فى تقرير هذا النهى وتمكينه فى النفس لكونه حينئذ بمنزلة ذكر الدعوى مقرونة بدليلها.

* * *

ومن غيب الحاضر الذى خفى علمه عن الجميع وانفرد النبى ﷺ بعلم حدوثه ما روى عن أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحش -رضى الله عنها- أنها قالت: اسْتَيْقَظَ رسولُ اللهِ -ﷺ- مِنْ نومٍ مُحمَرّاً وَجْهُهُ وَهُوَ يَقُولُ: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ- يُرَدِّدُهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ- وَيْلٌ لِلعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ " وَعَقَدَ

عَشَرَاً، قَالَتْ زَيْنَبُ -رضى الله عنها-: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ[1].

فرؤيا الأنبياء- عليهم السلام- وحى من الله تعالى- ومن ثم فهى حقيقة لا تقبل التأويل، ورسول الله -ﷺ- أعلم بذلك، فهو يدرك أن رؤياه تلك إنما هى إخبار من الله -تعالى- بمهم وقعت أحداثه على أرض الواقع حينها ولكنها لأمر ما غاب علمها، وخفى على الناس إدراكها.

وينقل النبى -ﷺ- للسامع أهمية ما رأى وخطر ما حدث من خلال ما رُئِى عليه من احمرار وجهه أولاً، ثم ترديده قول: "لا إله إلا الله" ثلاث مرات تأكيداً على أن ما حدث أمر عظيم وتنبيهاً إلى جلال الآتى بعد هذا القول ليعيره السامع من الاهتمام ما يتناسب مع أهميته، وحينئذ يترقب السامع بحذر شديد ما سيلقَى عليه لجزمه بخطورته لما رآه على النبى -ﷺ- ولما سمه منه، وإذا به -ﷺ- يبادره بقوله "ويل للعرب من شر قد اقترب" وبذلك يزداد السامع يقيناً بعِظم الأمر، وتتأكد عنده خطورته نظراً لما تفيده كلمة "ويل" المفتتح بها هذا القول من حتمية وقوع شر ما، ولما يفيده تنكيرها من التفخيم والتهويل لأمر هذا الشر مع عدم تعيينه مما يؤكِّد شدة ضرره الأمر الذى احمرَّ من أجله وجه النبى -ﷺ- وفتق لسانه بترديد قول "لا إله إلا الله" استجارة به وتعظيماً لشأنه مع تأكيد تعجُّبه مما رآه.

ويعجب كل سامع ويتطلع إلى المزيد من المعرفة حينما يعلم أن الويلأوالشر المؤكَّد قرب ظهوره بـ "قد" المفيدة توكيد هذا المعنى وتحقيقه يخص فئة معيَّنة من الناس وهم العرب[*]، فيقوى حينئذ حرصه على معرفة نوع هذا الشر والوقوف على بيانه،

---

(١) الجامع الصحيح للترمذى كتاب الفتن، باب ما جاء فى خروج يأجوج ومأجوج رقم (٢١٨٧) ويل: كلمة مثل ويح إلا أنها كلمة عذاب إذ الويل بمعنى حلول الشر- ردم: الردم بمعنى السد وقيل أكثر من السد، والمقصود به هنا السد الذى بيننا وبين يأجوج ومأجوج وهما قبيلتان من خلق الله تعالى- جاءت القراءة فيهما بهمز وغير همز، وفى الحديث: أن الخلق عشرة أجزاء: تسعة منها يأجوج ومأجوج، وهما اسمان أعجميان، واشتقاق مثلهما من كلام العرب يخرج من أجت النار، ومن الماء الأجاج، وهو الشديد الملوحة المحرق من ملوحته- الخبث المراد به الفسق والفجور.ينظر لسان العرب. المواد: [ويل، ردم، أجج، خبث]

(*) قيل: إن تخصيص العرب بالذكر لأنهم كانوا حينئذ معظم من أسلم ينظر: تحفة الأحوذى ٦/٤٥، وأرى أنه يضاف إلى ذلك كون العرب مستهدَفين من كل قوى الشر التى تتفق مصالحها فى إساءتهم خاصة وأن العرب يغلب وصفهم بالإسلام فلا عجب حينئذ أن تستهدفهم جموع يأجوج ومأجوج كما استهدفهم غيرهم ممن انعدمت أخلاقهم وعلَت نزعة الشر فى صدورهم.

وإذا بالبيان يأتيه بالكشف عن حدث غاب علمه برغم معاصرته للقول به نرى ذلك فى قول النبى -ﷺ-: "فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه" مع بناء الفعل "فُتح" للمجهول على اعتبار القصد إلى الحدث دون فاعله لكونه الأهم حتى لا ينصرف عقل السامع إلى الاشتغال بالتفكير فى غيره.

وتأكيداً منه -ﷺ- على زمن الحدث المذكور عبر عنه بالظرف فى قوله: "اليوم" تحديداً وتخصيصاً حتى لا يقع خلاف فى تحديد زمن الفعل المراد يُفهم ذلك من تعريف لفظ يوم بأل المفيدة أن ما دخلت عليه معهود ذهناً،

كما أن للتعبير بلفظ "اليوم" فائدة تأكيد ما وصف به النبى -ﷺ- هذا الشر من القرب وصفا مؤكَّداً فى قوله: "قد اقترب" إذ أن لفظ "اليوم" يؤذن بحتمية قرب ظهور هذا الشر طالما اهتدت جموع يأجوج ومأجوج إلى فتح السد ولو فتحاً يسيراً لا يُمكِّنهم من الخروج نظراً لأن جهودهم ستُكسَّف بعد حصولهم على تلك النتيجة التى أكد النبى -ﷺ- صغر مقدارها من خلال الإشارة الحسية فى قوله: (مثل هذه) (بأن جعل طرف السبابة اليُمنَى فى باطن طى عُقدة الإبهام العليا) [1] مستعيناً بأسلوب التشبيه فى نقل صورة الثقب الحادث فى السد كما شاهدها فى منامه لِما للتشبيه من دور بارز فى تأكيد المعانى وتقريرها من خلال تصويرها بما يجعلها أكثر وضوحاً وأتم بياناً.

ولا يخفى ما للإشارة والحركة أثناء القول- كما هو الحال هنا- من دلالة قوية على إيضاح المعنى المراد وتمكينه فى نفس السامع،(فهى تلفت النظر، وتُنبه الغافل، وتُعينه على الحفظ والتذكر[2].)

هذا وبرغم صغر المشار إليه مما فُتح من السد توقن راوية الحديث السيدة زينب -رضى الله عنها- بأن هلاكاً محققاً سيقع فتستوضح من النبى -ﷺ- عن أمرٍ دار بخاطرها قائلة: "يا رسول الله أفنهلك وفينا الصالحون؟" يعنى ألن يحول وجود الصالحين حين يخرج أولئك القوم دون هلاك الناس وضررهم؟

ويوجز النبى -ﷺ- الجواب مع إتباعه بذكر علته إغناء للسائل أن يسأل عنها بعد ذلك،

---

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ٦/٤٥.

(٢) ينظر التصوير الفنى فى الحديث النبوى، د/ محمد الصباغ، صـ٢٢٥،ط١ دار المكتب الإسلامى ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

فيقول "نعم، إذا كثر الخبث"، إشارة منه إلى واقع سوف يحدث فيما بعد زمانه يستحق به الناس الهلاك لتحولهم عن المنهج السليم الذى يضمن لهم السلامة فى الدارين، إذ النار إذا وقعت فى موضعٍ ما واشتدت أكلت الرطب واليابس، وغلبت على الطاهر والنجس، ولا تفرق بين المؤمن والمنافق، والمخالِف والموافق.

ولقد أكد النبى -ﷺ- حدوث السبب فى الهلاك حينئذٍ وقرر حصوله باستعماله "إذا" الشرطية لِما تفيده من الجزم بوقوع فعل الشرط وحينئذ لا عجب من تغيُّر وجه النبى -ﷺ- إلى الحمرة مع تكريره قول "لا إله إلا الله" إذ أن خروج يأجوج ومأجوج مقرون بفساد الدنيا وتغيُّر أحوال الناس خاصة المسلمين منهم.

المبحث الثالث

التوكيد في مقام الحديث عن غيب المستقبل ومشاهد يوم القيامة

المبحث الثالث

التوكيد في مقام الحديث عن غيب المستقبل ومشاهد يوم القيامة

ومما جرى على لسان النبى -ﷺ- من أحاديث الغيب ما يتعلق منها بأمور تقع فى آخر الزمان، ومشاهد اليوم الآخر يُصغى العوام والخواص لسماعها وتتحرك نفوسهم شوقاً إلى المتابعة والاستزادة منها لا بغرض التسلية ولكن للعظة والعلم لما تحمله هذه الأحاديث من أخبار تُعلِم بمصائر أقوام سيأتون فيما بعد، ومشاهد من اليوم الآخر الذى يرتبط بالحساب والجزاء وهما أخوف ما يخافه كل مؤمن موقن بالبعث.

والناظر فى استعراض النبى -ﷺ- لأحداث المستقبل خاصة منها ما يرتبط بآخر الزمان وما يعقبه من قيامة وبعث وحساب وجزاء يجد أنه -ﷺ- قد التزم التأكيد أسلوباً مؤدياً للمعنى ومساعداً على الإقناع بما يُحدِّث به.

ويجد -أيضاً- أنه قد التزم فى معظم ما حدَّث به فى هذا المقام أقوى أساليب التوكيد مثل القسم، والقصر بطريق النفى والاستثناء وذلك نظراً لارتباط أحاديث هذا المقام -خاصة- بالإنكار ممن يكذب بالبعث ولا يعتقد فى القيامة، ومَن حاله كذلك فلا يُتوقع منه -أيضاً- أن يُصدِّق بأحداث آخر الزمان الوارد خبرها عن النبى -ﷺ- ومن ثم ارتبطت أحاديث هذا المبحث بالتوكيد أكثر من غيره وبدا التوكيد فيها ظاهرة ملحوظة تسترعى الانتباه وتتطلب مزيداً من العناية والاهتمام.

ويبدو أنه كان على النبى ﷺ- أن يعتمد التوكيد أسلوب حديث فى هذا المقام كى يتكئ عليه فى توصيل الفكرة والسيطرة على أذهان المخاطبين وقلوبهم وضمان تسليمهم بصدق ما يلقَى عليهم.

(وكان -أيضاً- لا بد لاستعراضه -ﷺ- مواقف القيامة وغيرها فى أحاديث هذا المبحث المرتبط بعالم الغيب الآتى من الاهتمام بأدواته البيانية التى تتمثل فى توضيح الفكرة وإبرازها فى صورة رائعة مؤثرة، وإجادة تصوير الموقف المنتظَر، وتوشيته بأزهى الألوان والأصباغ مما أُلهِمه -ﷺ- بإعداد الله -تعالى- له وتوجيهه، ولذلك جاءت الثروة النبوية من أحاديث غيب المستقبل والقيامة جزيلة النفع عظيمة الأثر، فضلاً عن ذلك فقد أعطى ﷺ بأحاديثه تلك دليلاً صادقاً وقوياً على نبوته ورسالته،

وقد تميز مقام الحديث عن غيب المستقبل ومشاهد اليوم الآخر بوفرته وكثرة أحاديثه، وقد يستكثر البعض وفرة ما روته كتب السنة عن الرسول -ﷺ- فى هذا المقام وهو استكثار فى غير موضعه نظراً لأن أحاديث الفتن، وقضية البعث واليوم الآخر من الأمور الأساسية فى الدعوة الإسلامية، ولن تقتنع بها العقول المغلقة فى سهولة ويسر ومن ثم كان لا بد من إكثار الحديث عنها بإفاضة واستيفاء كما هو حاصل بالفعل[1].)

وفيما يلى أعرض نماذج من بيانه -ﷺ- فى هذا المقام أعمل من خلالها على تجلية الفكرة وتوضيح المراد مع التركيز على دواعى التوكيد وفائدته.

أولاً: التوكيد فى مقام الحديث عن غيب المستقبل :

نرى من ذلك ما رُوى عنه -ﷺ- مما نبَّه به إلى ما سيحدث مستقبلاً من أمور تتعلق بحال الأمة وما ستؤول إليه حيث قال:

"وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتُلُوا إِمَامَكُمْ، وَتَجْتَلِدُوا بِأَسْيَافِكُمْ، وَيَرِثَ دُنْيَاكُمْ شِرَارُكُمْ"[2].

لقد كان المجتمع الإسلامى زمن النبى -ﷺ- وصحابته مجتمعاً مثالياً تسوده الرحمة، وتجمع بين أبنائه الألفة والتعاون، كلمتهم واحدة، وإمامهم واحد، وحينئذٍ يخبر النبى -ﷺ- أصحابه بتبدُّل تلك الحالة وتغيُّرها فيما يُستقبَل من الزمان.

(ومن شأن الأمور الغريبة- التى يُخبر بها النبى- ﷺ- عن المستقبل وليست مما يعزم على إيجاده من المشروعات التى تُعد لها الخطط وتُرسم لها المناهج -أن يدخل الشك فيها فى النفس لعدم وجود الدلائل والأمارات المبشرة بها والمقربة لها.

والرسول -ﷺ- وإن لم يكن فى خبره شك يؤكِّد لنا هذه الأخبار مراعاة لحال الشاك والمنكر ابتداء ولنضعها أمام أعيينا موضع المسلَّم به المجزوم بصدقه، وللدلالة على كمال ثقته بها قبل أن يأتى زمانها وإلقاء بهذه الثقة على رؤوس القرون المقبلة ليشهد آخر الزمان بما شهد به أوله من دلائل صدقه ووثائق رسالته ، ثم ليحذر المؤمنون على أنفسهم هذه الأمور المقبلة[3].)

---

(١) ينظر: البيان النبوى، د/ محمد رجب البيومى صـ١٤٣-١٤٥.

(٢) الجامع الصحيح للترمذى، كتاب الفتن، باب ما جاء فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، رقم (٢١٧٠) تجتلدوا بأسيافكم: بمعنى يجاهد بعضكم البعض بالسيوف، وتقتتلوا فيما بينكم.ينظر لسان العرب مادة: [جلد]

(٣) ينظر الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية ، صـ١١٣.

والناظر فى الحديث الذى بين أيدينا يجد أن النبى - ﷺ- قد ابتدأه بأقوى أساليب التوكيد وأبلغها أثراً فى تقرير المعانى وتمكينها فى نفس السامع وهو القسم وذلك لفتاً لانتباه السامع، وتشويقاً له إلى الإحاطة بالجواب لتعلقه حينئذ بمُهم دعت الضرورة إلى الإعلام به،

ولا يكتفى النبى ﷺ بالقسم المذكور بل يُتبعه بنفى تبلغ به درجة الإثارة عند السامع ذروتها وذلك فى قوله -ﷺ-: "لا تقوم الساعة " إذ يتطلع حينئذ بشوق زائد إلى ما يلى جملة النفى وذلك من شأنه تأكيد المعنى المراد وتمكينه فى النفس ، فإذا بجُملٍ ثلاث تُتلى عليه يعلم من خلالها أن قيام الساعة مرهون بحدوث أفعالها، وأنها ستحدث حتماً وإلاّ فما فائدة التأكيد بالقسم والقصر بطريق النفى والاستثناء إن كانت تلك الأفعال ظنية غير مجذوم بحدوثها ؟

وطبعى أن تستوقف تلك الجمل الثلاث وهى قوله ﷺ : "حتى تقتلوا إمامكم ، وتجتلدوا بأسيافكم، ويرث دنياكم شراركم" -عقل السامع ليتأملها ، ويستطلع من خلالها مستقبل تلك الأمة، وليتأكد لديه بها صدق النبى ﷺ فى قوله من حديث آخر: "مَا مِنْ عَامٍ إِلَّا الَّذِى بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقَوا رَبَّكُمْ" [1]، ولِمَ لا تكون الأعوام الآتية كذلك والنبى ﷺ -يؤكد لنا فى الحديث وقوع أمور بها يتأكد وصف الأزمنة المستقبلة بعد زمانه بالشر؟

وإن قيل : إن الأفعال الثلاثة المذكورة -هنا- كلها قد حدثت فقد قُتِل أكثر من إمام من أئمة المسلمين على أيدى جماعات مسلمة،

وقد نشبت معارك كثيرة بين المسلمين بعضهم البعض، والحاضر خير شاهد على ذلك، فمعارك العراق وإيران، وغزو العراق الكويت ، وتناحر العراقيين أنفسهم فيما بينهم الآن - الشيعة والسنة - بتحريض من الغزاة المعتدين وغير ذلك من أحوال المسلمين مما نراه فى زماننا الذى نعيش فيه كل ذلك ليس ببعيد عنا ، وهو مما يشهد بصدق خبر النبى - -ﷺ- .

وكذا رأينا كثيراً من الأشرار يرثون الدنيا بوصولهم إلى سُدَّة الحكم والمناصب القيادية ، واستحواذهم على كثير من الأموال فلِمَ لَمْ تقم الساعة بعد؟

والجواب : أن من يتأمل ألفاظ الجمل الثلاث المذكورة يدرك أن مراد النبى-ﷺ- لم يكن الإخبار بفورية قيام الساعة بعد حدوث تلك الأفعال ، بل المراد هو الإخبار بأن هذه الأفعال إنما

---

(١) الجامع الصحيح للترمذى ، كتاب الفتن ، باب ما جاء فى أشراط الساعة رقم : (٢٢٠٦)

هى أمارات ودلائل مؤذِنة بقرب قيام الساعة، وليست مُعلِمة بوقتها على التحديد إذ أن علم ذلك مما اختص الله -تعالى- به نفسه حيث قال :" إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ[1]." وغير ذلك من الأدلة التى تؤكد تفرده -تعالى -بعلمها.

كما أن العبارات المستخدمة توحى بتجدد حدوث كل فعل من الأفعال الثلاثة المذكورة وتكرره ، فليس المقصود إذن حدوث كل منها مرة واحدة وبعدها تقوم الساعة يُفهم ذلك من اختيار النبى -ﷺ- الجملة الفعلية وسيلة للتعبير عن كل فعل -هنا- حيث قال :"تقتلوا إمامكم" "وتجتلدوا بأسيافكم" "ويرث دينكم شراركم" مع تأكيد استمرارية تجدد الحدوث فى المستقبل عن طريق التعبير بالأفعال المضارعة :" تقتلوا، تجتلدوا ، يرث " فكل منها يؤكد الدلالة على تجدد الحدوث وينبه على ذلك.

ولا يخفى أن إتيان النبي -ﷺ- بهذه الأفعال المضارعة مجردة من أداة الاستقبال برغم دلالتها على أحداث مستقبلة إنما يُقصَد به استحضار صورها فى الحال تقريراً لما تدل عليه فى نفس السامع بتخيُّله تلك الأفعال وكأنها حادثة أمامه ومن ثم تتأكد مدلولاتها وترسخ فى ذهنه (إذ المضارع الخالى من عِلم الاستقبال يُعبَّر به عن المستقبل لاستحضار صورة مدلوله فى الحال تقريراً له فى النفس كالمشاهد[2]).

ويزداد المعنى المراد تأكيداً فى نفس السامع، وتتمكن صورة كل فعل من تلك الأفعال المستقبلة -أيضاً- فى ذهنه بفضل توافق فواصل الحديث الشريف، وتساوى فِقَرِه وتناسقها.

(إذ السجع من الفنون الأسلوبية الفطرية التى تؤثر فى النفوس تأثير السحر، وتلعب بالأفهام لعب الريح بالهشيم لما يُحدثه من النغمة المؤثرة، والموسيقى القوية التى تطرب لها الآذان، وتهش لها النفوس، فتقبل على السماع من غير أن يداخلها ملل، أو يخالطها فتور، فيتمكن المعنى المراد فى الأذهان، ويقر فى الأفكار، ويعز لدى العقول، وهذا كله أُس البلاغة، ومقصد البلغاء الذين يتصدرهم جميعاً رسول الله -ﷺ-[3]). وهذا الإيقاع مما يلائم الخبر ويشغل المخاطبين به "فالإيقاع هو التناغم الذى يقيمه المتكلم بينه وبين المخاطب عن طريق الموضوع وهو الموسيقى المنبعثة من داخل الصياغة وهو ليس نغمات مكررة فقط بل هو تصوير لجو المعنى طلباً للتواصل المستمر بين المتكلم والمخاطب والموضوع"[4].

---

(١) سورة لقمان، آية رقم (٣٤).

(٢) ينظر: الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، صـ ٣٥٧.

(٣) ينظر: الصبغ البديعى فى اللغة العربية، د/ أحمد إبراهيم موسى، صـ ٤٩٧، طبعة دار الكتاب العربي: القاهرة، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٩م.

(٤) البديع تأصيل وتجديد د. منير سلطان صـ٢٣ دار المعارف الإسكندرية سنة ١٩٨٦م

ولا يخفى على متأمل ما يتميز به هذا الحديث من حسن الترتيب بين أحداثه، والبراعة في التنسيق بينها نظراً لتدرجها في الحدوث إذ أن قتل الإمام أو الحاكم يعقبه -غالبا- فُرقة المسلمين وتحزُّبهم وصيرورتهم إلى طوائف متناحرة يقتل بعضهم بعضاً من أجل الوصول إلى كرسي الحكم والسيطرة على ثروات فانية ومناصب زائلة، وحينئذ يؤول إرث الدنيا إلى الأشرار، وتؤول السلطة المتنازع عليها إلى من لا خلاق عنده -غالبا-، والتاريخ خير شاهد على ذلك، ومن ثم صح وصف الوارثين هنا بالأشرار وهم كذلك، مع محدوديه ملكهم، واكتفائهم بالسيطرة على قرى وبلدان مسلمة لعجزهم أصلاً- عن التوسع والفتوح، يُفهم ذلك من إضافة الموروث إلى ضمير المخاطبين في قوله -ﷺ-: "دنياكم"،

فضلاً عن ذلك ما تفيده تلك الإضافة من الدعوة إلى استنهاض الهمم وقت حدوث ذلك، واستنفار القوم إذ الموروث والمستولَى عليه حينئذ خاص بهم ومما يهمهم شأنه.

* * *

ومما أخبر عنه النبي -ﷺ- وأقسم على حدوثه مستقبلاً ما رُوى عنه أنه لَمَّا خَرجَ إلى حُنَينٍ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلمُشرِكينَ -يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ- يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُم، فَقَالَ مَنْ مَعَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ فَقَالَ - ﷺ-:

"سُبْحَانَ اللهِ!! هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ"(١).

لقد استشعر النبي -ﷺ- خطر أن يتحول المسلمون عن طريق الحق برغبتهم في تقليد أفعال غيرهم ممن لا يدينون بالإسلام، وذلك حينما سأله بعض الصحابة أن يجعل لهم شجرة يعلقون عليها أسلحتهم كما هو حال المشركين حينئذ، ومن ثم بادرهم بقوله: "سبحان الله!!" إثارة لانتباههم، وحملاً لهم على الاهتمام بما يعقب هذا القول لما يفيده لفظ "سبحان" من استعظام ما يُذكر بعده ويُهيئ النفوس لتلقيه، هذا فضلاً عن الداعي الرئيس لنطق النبي -ﷺ-

---

(١) الجامع الصحيح للترمذي. كتاب الفتن، باب ما جاء لَتركبن سنن من كان قبلكم، رقم: (٢١٨٠). الأنواط: المعاليق، والنَّوْط: ما عُلِّق سُمي بالمصدر، وذات أنواط: اسم شجرة بعينها كانت للمشركين ينوطون بها سلاحهم، ويعكفون حولها - السُّنة: السيرة حسنة كانت أو غير ذلك، وإذا أطلقت في الشرع فإنما يُراد بها ما أمر به النبي -ﷺ- ونهى عنه، وندب إليه قولاً وفعلاً مما لم ينطق به الكتاب العزيز. ينظر: لسان العرب، مادتا: [نوط، سنن].

بهذه الكلمة وهو التأكيد على خطأ القوم حينئذ فى طلبهم، والتنبيه على ضرورة عدولهم عنه، وهى كلمة جديرة بأن يسكن للآتى بعدها كل متحرك، ويصغى لها كل لاهٍ، وتلك البلاغة فى ذروتها "فاختيار المبدع لألفاظه يتم فى ضوء إدراكه لطبيعة اللفظة وتأثير ذلك على الفكرة كما يتم فى ضوء تجاور ألفاظ بعينها تستدعيها هذه المجاورة أو تستدعيها طبيعة الفكرة"[1].

هذا: ويتقرر الباعث على التعجب ويتأكد مدلوله حينما يقرع الأسماع قوله -ﷺ-: "هذا كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة" وإن كان لا يخفى ما بين الطلبين من تفاوت استُفيد من التعبير بأسلوب التشبيه[2] إذ يفيد تأكيدَ المبالغة فى تجاوز بنى إسرائيل فيما طلبوه من نبيهم -عليه السلام- ومن ثم صح أن يشبَّه بهم غيرهم ممن يصدر عنهم أقوال أو أفعال فى هذا الخصوص مما يدل دلالة أكيدة على بلوغهم فى هذا الشأن حداً متناهياً نظراً لكون المشبه به أقوى فى وجه الشبه، ومن ثم اكتفى النبي -ﷺ- فى التعليق على ما طلبه منه قومه بأن تعجب منهم مع تشبيههم بالأصل فى هذا المقام دون أن يرد عليهم بما رد به موسى -عليه السلام- على قومه بقوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[3].

ولأن الأمور يستدعى بعضها بعضاً فقد استدعى طلب الصحابة من النبي -ﷺ- أن يجعل لهم ذات أنواط كما للمشركين أن ينبئهم بحقيقة مستقبلة أطلعه الله -سبحانه وتعالى- عليها واختصه بعلمها ومن ثم أكد النبى -ﷺ- حصولها بما يحول بينها وبين ريب المرتابين وإنكار المنكرين حيث قال: "والذى نفسي بيده لَتركبُنَّ سنة من كان قبلكم" فهذا القول على إيجازه قد حوى من المؤكدات ما يحقق حدوث معناه، ويجعله عقيدة راسخة فى نفس كل مسلم،

فلقد ابتدأه النبي -ﷺ- بالقسم "والذى نفسى بيده" إشعاراً بأهمية المقسَم عليه، وتشويقاً لمعرفته ليعيره السامع من الانتباه ما يمكنه فى نفسه ويحمله على التسليم بصدقه.

ونظراً لما يحدثه أسلوب القسم فى النفس من تشوق وتطلع إلى معرفة الجواب يبادر النبي -ﷺ- به فى قوله: "لَتركبُنَّ سنة من كان قبلكم" مع تأكيده باللام، ونون التوكيد الثقيلة الداخلة على الفعل المضارع الواقع فى جواب القسم وذلك تحقيقاً لمدلوله وتقريراً لإرادة حصوله مستقبلاً (نظراً لما تفيده النون الثقيلة الداخلة عليه من تخليصه للزمن المستقبل[4])،

---

(١) البلاغة الأسلوبية، د. محمد عبدالمطلب صـ ٢٠٧، مكتبة البيان.

(٢) ينظر: تحفة الأحوذى ٦/ ٣٣.

(٣) سورة الأعراف آية رقم (١٣٨).

(٤) ينظر: النحو الوافى، تأليف: عباس حسن، ٤/ ١٦٩، طبعة دار المعارف، مصر. بدون تاريخ أو رقم طبع

وهى أيضاً تفيد وكأن الفعل الداخلة عليه قد تكرر ذكره لكون وجودها بمنزلة ذكر الفعل ثلاث مرات ، ومن ثم فهى تفيده فضل توكيد، وتُحقق تمكين مضمونه فى النفس.

ومما يؤكد -أيضاً- حقيقة اتباع المسلمين غيرهم ممن قبلهم تعبير النبي -ﷺ- عن ذلك بتلك الصورة البيانية التى تأسر العقل، وتقسر الانتباه على التفكر فى مضمونها وما توحى به وذلك فى قوله: "لتركبن سنة من كان قبلكم" إذ يدرك السامع أن التعبير بالركوب فى جانب السُّنة إنما هو تخييل سبيله الاستعارة المكنية حيث شبه النبي -ﷺ- السنة -هنا- بدابة مركوبة مع تمكن راكبها من ظهرها بجامع الوصول بالمركوب إلى تحقيق ما ينشده الراكب، مما يعكس لنا بوضوح ما عليه القوم الذين فُتنوا ويُفتنون بآراء ومعتقدات غيرهم، وحرصهم الشديد على أن يسيروا حسب ما ترشد إليه وإن أدى بهم ذلك إلى المخالفة الصريحة لما هو ثابت بالكتاب والسنة النبوية الشريفة.

واختيار التعبير بالاستعارة المكنية -هنا- نظراً لوصولها بالمبالغة فى بيان الاتباع المذكور أقصى درجاتها والتى يؤكد الواقع يوماً بعد يوم مدى التوافق بين التعبير المحقق لتلك المبالغة والمعنى المراد.

ولا يخفى ما يوحى به إيراد لفظ "سُنة" مُنكَّراً من الدلالة على تنوع وتعدد نواحى الاتباع المراد تأكيده وتشعب طرقه، ومن ثم فهو ليس مقصوراً على الناحية الدينية فحسب، بل يتعداها إلى غيرها من النواحى الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسة كل ذلك فيما هو غير محمود أصلاً والواقع الذى يعيشه المسلمون اليوم خير شاهد على ذلك.

كما يفيد تعبير النبي -ﷺ- بالفعل الماضى "كان" فى قوله --ﷺ- "مَن كان قبلكم" المبالغة فى تأكيد مضى زمن المشار إلى حصول اتباعهم إشارة مفهومه من سياق الحديث، وذلك نظراً لوجود ما يدل على إرادة زمن هذا الفعل مثل قوله: "لتتبعن" إذ الاتباع لا يكون إلا لمن مضى زمانه غالباً وكذا قوله: "قبلكم" وهكذا.

* * *

ومن غيب المستقبل الذى أكد النبى -ﷺ- حدوثه قوله:

"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الجِزْيَةَ، وَيَفِيضُ المَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ"(١).

فالنبي -ﷺ- يخبر فى هذا الحديث عن أحد أمارات الساعة الكبرى التى تتمثل فى نزول روح الله وكلمته عيسى بن مريم -عليه السلام- الذى زعم الكاذبون أنه قُتل وردّ الله -تعالى- زعمهم بقوله: ﴿ ..... وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما ﴾(٢). ومن ثم كان إنزاله من السماء آية من آيات الله -تعالى- وكان الإعلام بها قبل حدوثها معجزة تؤكد صدق رسالة النبي -ﷺ-.

ونظراً لعِظم الأمر المخبَر عنه، ولكونه غيباً مستقبلاً لم يحدث بعد وارتباط الشخص المتحدَّث عنه بشائعة القتل ثم الصلب، وتغلغل تلك الشائعة فى عقول كثير من الناس -خاصة أهل الكتاب -نرى النبى -ﷺ- قد راعى كل ذلك فابتدأ حديثه -هنا- بأقوى أساليب التوكيد وهو القسم على عادته فى أحاديث هذا المبحث حيث قال: "والذى نفسى بيده" لافتاً بذلك انتباه السامع، ومشوقاً إياه إلى ضرورة الإحاطة بالجواب مبالغة فى تقرير مضمونه وتمكيناً له فى النفس.

ولقد أتى الجواب مُصدَّراً بالفعل المضارع "يوشك" مع اقترانه بلام التوكيد، وكذا نون التوكيد الثقيلة تحقيقاً لمعنى القرب المراد، وإيذاناً بدنو النهاية المترتبة على نزول المسيح عيسى- عليه السلام.

وقوله -ﷺ-: ""فيكم لا يخص مَن وُجه إليهم الخطاب أولاً، بل يعم جميع المسلمين حتى لا يترتب على التخصيص حصول التناقض بين القول وواقع الحال حينئذ،

---

(١) الجامع الصحيح للترمذي. كتاب الفتن، باب ما جاء فى نزول عيسى بن مريم -عليه السلام-. رقم: (٢٢٣٣) يوشك: أى يقرب ويدنو ويسرع، والوشيك: السريع القريب - مقسطاً: أى عادلاً، يقال: أقسط يقسِط فهو مقسِط إذا عدل - يضع: أى يُسقط من وضع عنه الدين والدم وجميع أنواع الجناية يضعه وضعاً: أسقطه عنه - الجزية: ما يؤخذ من أهل الذمة، وهى عبارة عن المال الذى يعقد الكتابى عليه الذمة، وهى فعلة من الجزاء كأنها جزت عن قتله. ينظر: لسان العرب، المواد: [وشك، قسط، وضع، جزى]

(٢) سورة النساء، آية: (١٥٧، ١٥٨).

وهنا قد يسأل السامع نفسه أيكون عيسى -عليه السلام- نبياً مرسلاً فى هذه الأمة؟

وإذا بقول النبي -ﷺ-: "حَكَماً مُقْسِطاً" يُبيِّن الغرض من النزول، ويؤكد اتصاف نبينا -ﷺ- بأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، فعيسى -عليه السلام- سينزل ليحكم بين الناس بهذه الشريعة، فهى باقية لن تنسخ.

ويترتب فى النفس على هذا الجواب سؤال مضمونه أن يقال: أتخلو هذه الأمة ممن يتصفون بالعدل فى الحكم حتى تحتاج إلى قادم من السماء يُذكِّرها به وينشره بين ربوعها، وإن لم يكن الأمر كذلك فما الحكمة من نزول المسيح -عليه السلام- خاصة دون غيره من الأنبياء؟

ويجاب عن ذلك بما قيل:(من أن نزوله -عليه السلام- إنما هو تأكيد لنفى ادعاء اليهود قتله، أو أن نزوله لدنو أجله حتى يدفن فى الأرض ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾، أو أن نزوله ليصير من أمة النبي -ﷺ- استجابة لما دعا الله -تعالىَ- به حينما علم بصفته -ﷺ- وصفة أمته، والرأى الأول هو الأوجه[1].)

وتتأكد وجاهته من خلال إفصاح النبي -ﷺ- فى هذا الحديث عن أول مهام عيسى -عليه السلام-. بعد نزوله بقوله: "فيكسر الصليب" ذاك الرمز الذى اتخذه النصارى شعاراً لهم لاعتقادهم أنه يمثل هيئة المسيح -عليه السلام- حال صلبه بعد أن قُتِل.

ولا يخفى ما فى هذا القول من الكناية عن إبطال النصرانية وإنهاء التدين بها، واختيار الكناية -هنا- وسيلة للتعبير لما تفيده من التأكيد والتقرير لهذا المعنى أكثر من أى تعبير آخر إذ أن كسر الصليب ممن وُضِع من أجله واعتُقِد فيه لِشخصه لَهو أبلغ وآكد فى بيان انتهاء أمره وأمر الدين المرتبط به،

ولا يقتصر الأمر فى إبطال النصرانية على ذلك بل يؤكده المسيح -عليه السلام- بقتله الخنزير كناية عن تحريم اقتنائه وأكله، وإباحة قتله، يتبين لنا ذلك من قوله -ﷺ-: "ويقتل الخنزير".

ويستطرد النبي -ﷺ- فى بيان ما يقوم به المسيح -عليه السلام- من عمل بعد نزوله من السماء بقوله: "ويضع الجزية" والمراد بوضعها (أنه يحمل الناس على دين الإسلام فلا

---

(١) ينظر: تحفة الأحوذى، ٩٧/٦، والآية من سورة طه، رقم (٥٥).

يبقى ذمي تجرى عليه الجزية، وقيل: المراد بذلك الاستغناء عنها بكثرة المال حينئذ وعدم وجود الفقير المحتاج إليها، وقيل: المراد تقريرها على الكفار من غير محاباة وتكون كثرة المال حينئذ بسبب ذلك) [1].

والأوجه عندي هو الرأى الأول إذ أن حمل الناس على دين الإسلام لَهو من أعظم المهام التى من أجلها يُنزِل الله -تعالى- المسيح -عليه السلام-، ثم إن الغرض من فرض الجزية ليس الاستغناء بها بل العقوبة لِمن لم يُسلم ومن ثم كان قول النبي -ﷺ-: "ويضع الجزية بمنزلة التوكيد للعملينِ السابق ذكرهما وهما: كسر الصليب، وقتل الخنزير، إذ الهدف منهما كما بيَّنت سابقاً – هو التمهيد لتوحيد الدين والإعلام بذلك على جهة التأكيد، وبذلك يكون وضع الجزية كناية عن وحدة الدين حينئذ تمكيناً لهذا المعنى فى نفس السامع وترسيخاً له فى ذهنه إذ أن ذكره جاء مصحوباً بالدليل المؤكِّد له.

وبعد إعلام النبي -ﷺ- بما يقوم به المسيح -عليه السلام- بعد نزوله إلى الأرض يخبر عن حقيقة مستقبلة -أيضاً- تترتب على تحقيقه العدل، ومنعه الظلم وذلك بقوله: "ويفيض المال حتى لا يقبله أحد" المال: ذاك الفاتن الذى من أجله أُبيدت دول، وهُتكت أعراض، وقُطعت أرحام، يفيض ويكثر لدرجة أن النفوس تعزف عنه ولا ترغب فى جمعه وكنزه كسابق حالها معه وذلك لقصر آمالها حينئذ، وعلمها بقرب القيامة إذ أن عيسى -عليه السلام- من أعلامها الكبرى وأشراطها العظمى.

ولا يخفى ما فى التعبير عن كثرة المال حينئذ بالفيض من تصوير بديع سبيله الاستعارة المكنية حيث شبه -ﷺ- المال فى كثرته بالماء الذى جاوز الحد المعهود حتى فاض وغمر كل ما يحيط بمجراه من يابس، وذلك بجامع مجاوزة الحد فى كل، ثم حذف المشبه به "الماء" ورمز إليه بشئ من لوازمه "الفيض" على سبيل التخييل مبالغة فى إثبات المعنى المراد وتقريره فى النفس، ولقد حققت الاستعارة -هنا- ما يهدف إليه النبي -ﷺ- من المبالغة فى إثباث كثرة المال حينئذ مع تمكين هذا المعنى فى نفس السامع وإقناعه به عن طريق التخييل الذى يبلغ بتصور السامع كثرة المال حينئذ حداً لا نهاية له.

* * *

---

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ٩٦/٦ - النهاية فى غريب الحديث والأثر، مادة: [وضع]

ومما ورد من إخبار النبي -ﷺ- عن غيب المستقبل مؤكّداً بما يحقق صدق حدوثه ما رُوى أنه لما نزل قول الله -تعالى-:﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[التكاثر (٨)]

قال الزبير بن العوام -ﷺ-: يَا رَسُولَ اللهِ فَأَيُّ النَّعِيمِ نُسْأَلُ عَنْهُ وَإِنَّمَا هُمَا الأَسْوَدَانِ: التَّمْرُ وَالمَاءُ؟! فَقَالَ النبيُ -ﷺ-: "أَمَا إِنَّهُ سَيَكُونُ"(١).

لقد لفت انتباه الصحابي الجليل الزبير بن العوام -ﷺ- قول الله -تعالى-: "ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ" مع وروده مؤكّدا بما يحققه ويقرر حصوله مستقبلاً، وحينئذ سأل نفسه متعجباً أى النعيم سنسأل عنه فيما بعد ونحن لا نملك من حطام الدنيا سوى ما نقتاته وهو مقصور على التمر والماء؟!

وطبعى أن لا يجد لسؤاله جواباً عند نفسه فيتوجه به حينئذ إلى نبي الأمة ورسولها -ﷺ- (لإدراكه أن استعصاء الجواب عليه وهو ابن اللغة وربيب الفصاحة لتطلب السؤال إجابة صائبة من ذى فكر أكبر يتمتع باليقظة والدراية والثقوب، وذلك بعض ما لدى النبي -ﷺ- من مميزات إذ أن إجابته على الأسئلة القرآنية كانت دائماً حسماً للخلاف وكشفاً عن الباطن المستور) (٢).

ويجيب -ﷺ- جواباً موجزاً مركزاً يبلغ به هدفه ، ويحقق مراده من إطلاع السائل وغيره من جماعة المسلمين على حقيقة مستقبلة أنبأت عنها الآية الكريمة -سبب السؤال- على سبيل التلميح، فيقول: "أَمَا إِنَّهُ سَيَكُونُ"، مُصرِّحاً بحصول النعيم. المسئول عنه. للأمة فيما بعد، ومؤكداً ذلك بإيراد جملة الجواب مؤلَّفة من مؤكّدات هى عماد بنائها وأساس تأليفها،

فنرى ابتدائها بـ "أَمَا" وهى أداة يُؤتَى بها تنبيهاً للمخاطب وإيقاظاً لمشاعره، وتهيئة لحواسه كى يصغى إلى ما يأتى بعدها من معان مهمة فتثبت فى نفسه وتقر فى ذهنه،

---

(١) الجامع الصحيح للترمذي. كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة "ألهاكم التكاثر" = رقم: (٣٣٥٦)، الأسودان: هما كما ذكر راوى الحديث التمر والماء، وإطلاق هذا الاسم عليهما معاً إنما هو على سبيل التغليب، لأن التمر هو الأسود وهذا هو الغالب على تمر المدينة، وأما الماء فأُضيف إليه ونُعت بنعته إتباعاً لما بينهما من تناسب من جهة كونهما مما يتغذى به، والعرب تفعل ذلك فى الشيئين يصطحبان فيسميان معاً باسم الأشهر منهما كالقمرين، والعمرين وهكذا ينظر: لسان العرب، مادة: [سود] مغنى اللبيب، صـ ٩٠٠.

(٢) ينظر: البيان النبوي، د/ محمد رجب البيومى، صـ ٢٨٩.

وتلى أَمَا "إِنَّ" تأكيداً لإثبات حصول النعيم المسئول عنه بما لا يدع مجالاً للشك فى ذلك فى نفس السامع نظراً لكون الحاجة تعظم إليها إذا كان للمخاطب ظن فى خلاف ما يراد إثباته، وذلك كما قال الإمام عبدالقاهر: (إنما يحتاج إليها إذا كان للمخاطب ظن فى الخلاف، ولذلك تراها تزداد حسناً إذا كان الخبر أمراً يبعد مثله فى الظن) [1] وهل دعا السائل للسؤال إلا ظنه ابتداءً فى خلاف ما أثبته النبي -ﷺ- فى جوابه؟

ونظراً لحسن موقع إنَّ حسن ما اتصلت به من ضمير الشأن فى قوله -ﷺ-: "إنه" وتحقق له من اللطف ما لا يُرى له إذا هى لم تدخل عليه، ولا يخفى ما يفيده التعبير بضمير الشأن -هنا- من الإيجاز والتركيز، وكذا تحقيق اختصاص المخبَر بكونه سيحدث مستقبلاً بالنعيم المسئول عنه والتأكيد على ذلك.

ويقرر النبى -ﷺ- حتمية حصول النعيم المسئول عنه بإدخاله السين على الفعل المضارع "يكون" نظراً لاقتضائها توكيد موعوده، وتقرير معناه، مع تخليصها إياه للمستقبل[2]. وبذلك تتأكد إرادة الاستقبال لما يخبر عنه النبى -ﷺ- هنا- وأن المراد هو أن النعيم الذى سيُسأل عنه المسلمون سيكون مستقبلاً (حين تمتد راية الإسلام، ويدخل الناس فى دين الله أفواجاً من جميع الممالك والدول إذ ذاك سيكون النعيم ويزداد الخير فيحاسَب عليه المسلمون[3].)

لا أن المراد أن السؤال سيكون عن الأسودين- التمر والماء- بناءً على أنهما نعمتان عظيمتان من نعم الله -تعالى- وهذا ما أميل إليه وأُؤيده نظراً لأن السؤال عن نعمتى التمر والماءوهما من أعظم النعم التى يمتن الله -تعالى- بها على الإنسان لكونهما يمثلان أساس حياته -الغذاء والشراب- لا يتطلب مزيد تأكيد لإثباته،

وكذا لأن الحاجة للمؤكِّدات المذكورة التى سبق أن أشرت إليها وبيَّنتها يقتضيها مقام الإخبار عن غيب مستقبلى يغاير واقع المخاطب الأول حينئذ الذى ينقله لنا الصحابى الجليل الزبير بن العوام -ﷺ- بقوله: "فَأَيُّ النَّعِيمِ نُسَأَلُ عَنْهُ وَإِنَّمَا هُمَا الأَسْوَدَانِ: التَّمْرُ والمَاءُ؟" اللهم إلا إذا كان التأكيد على أمر السؤال نفسه، فيؤكد على عِظم هذين الطعامين مع استحقارهما فى نظر البعض.

---

(١) ينظر: دلائل الإعجاز، صـ ٣٢٥.

(٢) ينظر: الكشاف ١٦٢/٢- معانى الحروف للرمانى صـ٤٣٠- البرهان ٢٨١/٤- الإتقان ١٩٨/٢- مغنى اللبيب صـ١٨٤/ ١٨٥.

(٣) ينظر البيان النبوى صـ٢٩٠.

ثانياً: التوكيد فى مقام الحديث عن صور يوم القيامة.

وأما عن التوكيد فى مقام حديث النبى -ﷺ- عن صور القيامة ومشاهد اليوم الآخر فينبغى القول بأنه لا مجال للعقل البشرى فى معرفة تلك الحياة الآخرة وإدراكها إذ أن معرفتها حقاً مقصورة على ما نطقت به آيات القرآن الكريم، وما ورد عن النبى -ﷺ- من أحاديث (يتلقاها المؤمنون باستسلام وقلوب مفتوحة لما يجدون فيها من ترهيب وترغيب وتحذير حتى غدوا يعيشون الآخرة وهم فى الدنيا تدب أقدامهم على الأرض وتعانق قلوبهم السماء[1].)

ولقد كان للتوكيد دور بارز فى تقرير ما يذكره النبى -ﷺ-عن البعث واليوم الآخر لارتباطهما بالإنكار من بعض طوائف البشر ممن استحكم الهوى على عقولهم، وملأت الغواية قلوبهم فصاروا ينشدون كل متعة- خاصة منها ما يرتبط بالمنع -غير آبهين بما يترتب عليها لاعتقادهم الفاسد بأن الموت الذى ينتظرهم هو نهاية الحياة بوجه عام غير مدركين أنه البداية للحياة الحقيقية ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [2]. تلك الحياة التى توصف بالأبدية، وتقوم على أساس العدل المطلق، وإعطاء كل ذى حق حقه دون تفريق بين طائفة وأخرى، أو جنس وآخر، ودون تمييز أو محاباة. وهذا ما يصوره لنا النبى -ﷺ- بقوله:

"لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ" [3].

فالنبى -ﷺ- ينقل لنا بهذا الحديث مشهداً من مشاهد اليوم الآخر وهو مشهد يمثل الإنصاف فى أسمى معانيه حيث القصاص الحق القائم على أساس العدل الذى طالما غاب عن دنيا الناس حتى كاد أن يُنسى، ومن ثم راعى ﷺ تلك الحقيقة التى تتأكد كلما تقدم بالناس الزمان، ومرت عليهم السنون والأعوام فخاطبهم هنا بما يؤكد لهم أن الحقوق المسلوبة لا بد لها من يوم ترجع فيه لأهلها.

---

(١) ينظر، مشاهد يوم القيامة فى الحديث النبوى، د/ أحمد محمد عبد الله العلى، صـ١٣٥، ط٢، دار الكرامة للتراث القاهرة، دار الوفاء المنصورة،١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢) سورة العنكبوت، آية رقم (٦٤)

(٣) الجامع الصحيح للترمذى: كتاب صفة القيامة، باب ما جاء فى شأن الحساب والقصاص، رقم: (٢٤٢٠)، الشاة الجلحاء، هى التى لا قرن لها- والقرناء: عكس ذلك، ينظر لسان العرب، مادتا: [جلح- قرن]

ولقد استعان ﷺ فى تمكين هذا المعنى فى نفس السامع بابتدائه بما يُجاب به القسم فى قوله: "لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ إِلَى أَهلِهَا" جاعلاً لفظ القسم مقدراً ومسلطاً جُل اهتمام السامع على الجواب قاصداً أن يكون لفظه هو أول ما يقرع السمع بما اشتمل عليه من لام التوكيد، وكذا نون التوكيد الثقيلة بغرض تقرير حتمية حصوله مستقبلاً عن طريق المفاجأة القوية التى تُثِيب بقوتها كلَّ ذى لُب إلى رشده فيسارع إلى تخليص نفسه من حقوق الآخرين قبل أن تُؤخذ منه قهراً على رؤوس الأشهاد.

كما أن بناء الفعل "تُؤَدُّنَّ" -هنا- للمجهول فيه دلالة على كمال الاهتمام بالفعل المخبَر عنه قصداً إلى صرف انتباه السامع كُليةً إليه مما يؤدى إلى تمكين إرادته فى نفسه وتقريرها فى ذهنه. فلقد حُذف الفاعل وبقى مكانه المفعول لأنه محور الحدث، وعليه يقام الحديث ولا شك أن الفاعل فى البال لا يغيب ما دام المفعول موجوداً يقول بعض الباحثين "فالناظر فى تركيب هذه الأنواع يلمس روح التعلق بين طرفى الحذف فيها وهى روح تستند إلى الدلالة المقالية وتُجسد العلاقة التركيبية بين المثبَت والمحذوف وهى فى أساسها تكشف عن التلازم المنطقى بين الطرفين[1]"

ولا يخفى ما تفيده "أل" فى "الحقوق" من تقرير الدلالة على أن المتحدَّث عنه أمر معلوم بالنسبة لمن له أو عليه الحق وإن لم يسبق لذلك ذكر فى الحديث نظراً لكونه معهوداً فى الذهن خاصة عند صاحب الحق.

كما أن لهذه اللام فائدة الدلالة على عدم التفريق فى الحقوق المؤداة بين صغيرها وكبيرها تأكيداً على تحقيق العدل المطلق حينئذ، "إذ أن التعبير بها يقوم على التلميح والاعتماد على ذكاء المخاطب فى استنباط ما توحى به من دلالات"[2].

وطبعى ألا يكون الأداء للحقوق فى الآخرة مثلياً كما هو الحال -غالباً- فى الدنيا إذ أنه لا ينفع من سُلِب منه مال فى الدنيا أن يُرد إليه هذا المال فى الآخرة وهكذا، ومن ثم فالأداء المذكور إنما هو كناية يُقصد بها التقرير والإيجاب لما سيكون حينئذ من تبادل الحسنات والسيئات كما صرح بذلك النبى -ﷺ- فى قوله: "أَتَدْرُونَ مَنِ المُفْلِسُ" قال الصحابةُ: المُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ ﷺ: "المُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِى مَنْ يَأْتِى يَوْمَ القِيَامَةِ

---

(١) التناسب والتلازم فى أسلوب الحذف د. محمد كريم، صـ٧ - المغرب.

(٢) من بلاغة النظم العربى، صـ١٥٤.

بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَزَكَاتِهِ، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَـذَا، وَسَـفَكَ دَمَ هَـذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُقْعَدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِن حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَـتْ حَسَـنَاتُهُ قَبْـلَ أَنْ يُقْتَصَّ مَا عَلَيْهِ مِنَ الخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ"[1].

فكل حق سوف يُؤدَّى إلى صاحبه أيًّا كان هذا الصاحب، وأيًّا كان مصيره الذى سيؤل إليه،

ومما يؤكد هذا المعنى ويزيده تقريراً فى النفس فضلاً عن توضيحه بما لا يـدع مجـالاً للشك قى حصوله قوله -ﷺ-: "حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء" فـ "حتى" -هنـا- تفيد انتهاء الغاية إذ أن المذكور بعدها يُعد الغاية القصوى فى إحقاق الحق، وإقامـة العـدل الذى اقتضته إرادة الله -تعالى- حيث قضى أن لا يمر شئ دون جزاء حتى ولو كان المعتـدِى والمعتدَى عليه من جنس من لم يثبت فى حقه تكليف كالحيوانات مثلاً مصداقـاً لقـول الله -تعالى-: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾[2] . فحشرها من أجل ذلك وبعده يكون فناؤها إلى الأبـد، (ومن ثم فالقصاص منها ليس قصاص تكليف ولكنه قصاص مقابلة) [3] وهو حقيقـة واقعـة يومئذ وليس مقصوداً به -هنا- مجرد التمثيل، كما أن هذا العمل حينئذ بمنزلة الإشارة المنبهة لأهل المحشر جميعاً على أنه ما من حق إلا وسوف يُؤدَّى إلى صاحبه فيسـعد بذلـك أنـاس ويبأس آخرون.

وعن هذا العمل يقول فضيلة الشيخ صِدِّيق حسن خان:(وأما فعل الحكيـم القديـر ذلـك فليعرف أهل المحشر جميعاً أنه-عز وجل-لا يترك مثقال ذرة من العدل ليتحقق أهل النعيم مـا لهم من النعيم المقيم، وأهل الجحيم ما أعد لهم من العذاب الأليم تنويـراً لـهم وإرشـاداً لأن يعلموا عظمته -تعالى- وكبرياءه، وحقيقة عدله المطلق، وتساوى جميـع مخلوقاتـه عنـده بالنسبة لذلك[4].

---

(١) الجامع الصحيح للترمذى، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، بـاب مـا جـاء فـى شـأن الحسـاب والقصاص، رقم (٢٤١٨)

(٢) سورة التكوير، آية رقم (٥)

(٣) ينظر/ تحفة الأحوذى ٦/٢٩١.

(٤) ينظر: فتح البيان فى مقاصد القرآن، تأليف صِدِّيق حسن خان، ١٠/٢٤٨ مطبعة العاصمة ، القاهرة سنة ١٩٦٥م بدون رقم طبع.

هذا: ولا يخفى ما أفادته المقابلة بين كل من الجلحاء والقرناء من إيضاح المعنى المراد وتأكيده وتقويته نظراً لأن تصور أحد الضدين فيه تصور واستدعاء للآخر ومن ثم فالذهن عند ذكر الضد يكون مُهيَّأً للآخر ومستعداً فإذا ورد عليه ثبت وتأكد فيه.

وبعد، فالحث على عدم البغى والتعدى، والمسارعة فى أداء الحقوق إلى أهلها، والتحلل من المظالم فى الدنيا قبل أن تُنشر الصحف بما فيها ويُقتَص للمظلوم من الظالم هو الهدف والغاية من وراء إخبار النبى -ﷺ- بهذا المشهد الأخروى وتوكيده بما أسلفت الحديث عنه من مؤكدات واقعة موقعها ومحققة المنشود منها.

* * *

ومن مشاهد القيامة التى حرص النبى -ﷺ- على تأكيد حصولها رؤية الله -تعالى- التى هى أهموأعظم نعيم أهل الجنة، نرى ذلك فى قوله -ﷺ:

"أَتُضَامُونَ فِي رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، وَتُضَامُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ" قَالُوا: لَا قَالَ: "فَإِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ"(١).

فرؤية الله -تبارك -وتعالى- فى الآخرة حق كما نطق بذلك القرآن الكريم فقال تعالى-: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾(٢) و"الغاية القصوى فى نعيم الآخرة والدرجة العليا من عطايا الله الفاخرة"(٣) كما أنها: "من أشرف مسائل أصول الدين وأجلها"(٤).

ومن ثم راعى النبى -ﷺ- أهميتها فابتدأ الحديث عن إثباتها باستفهام تقريرى فى قوله: "أتضامون فى رؤية القمر ليلة البدر، وتضامون فى رؤية الشمس؟" ليحصل من خلاله على

---

(١) الجامع الصحيح للترمذى كتاب صفة الجنة، باب ما جاء فى رؤية الرب تبارك وتعالى، رقم (٢٥٥٤) تضامون: بالتخفيف من الضيم بمعنى الظلم، والمعنى على ذلك: لا يظلم بعضكم بعضاً، وتضامُّون بالتشديد من الضم، ومعناه التزاحم، أى لا تزاحمون عند الرؤية، ينظر لسان العرب، مادة: (ضيم).

(٢) سورة القيامة ، آية (٢٢، ٢٣).

(٣) جامع الأصول فى أحاديث الرسول، تأليف مجد الدين أبى السعادات المبارك بن محمد المعروف بابن الأثير الجزرى، ت/ عبد القادر الأرناؤوط، ٥٥٧/١٠، مكتبات الحلوانى والملاح، ودار البيان، دمشق، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م بدون رقم طبع.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية، تأليف على بن على بن محمد بن أبى العز الدمشقى، ت: د/ عبد الله بن عبد المحسن التركى، شعيب الأرناؤوط ٢٠٨/١٠، ط١ مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

إقرار كل مخاطب بحقيقة الظهور الكامل، والوضوح التام لما سوف يضرب لهم من مثل على وضوح وتحقق رؤية الله -تعالى فى الآخرة.

ولا يخفى ما للاستفهام هنا من دور بارز فى تهيئة المخاطب وتنبيهه لتلقّى الخبر المراد الإعلام به لكونه فوق تصور كل البشر نظراً لتعلقه بذات الخالق-جل فى علاه.

وبعد الجواب المعلوم والمنتظر سماعه بقول المخاطبين حينئذ وفى كل زمان "لا" مقرين بانتفاء الضيم عند رؤية القمر أو الشمس يبادر النبى -ﷺ- بإفصاحه عن الداعى لسؤالهم وذلك لعلمه بشوقهم إلى معرفته ومن ثم لم يُطِل انتظارهم حيث قال: "فإنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون فى رؤيته" مُلقياً بهذه الحقيقة بين أيديهم مع إحاطتها بما يضمن لها التمكن فى نفوسهم ويحجز الريب والإنكار من التسلل إليهم بخصوصها،

فنرى "إنَّ" المفيدة توكيد نسبة الرؤية إليهم، وتليها "السين" المفيدة تحقيق ما أكدته "إنَّ" وهو الوعد بالرؤية مع تقرير حصولها مستقبلاً،

ويلى ذلك المؤكّد الأعظم والمقرّر الأهم لحقيقة الرؤية وهو التشبيه التمثيلى حيث شبه النبى -ﷺ- هيئة رؤية أهل الجنة ربهم -سبحانه وتعالى- فى الآخرة بهيئة رؤية الناس القمر فى الدنيا حالة كونه فى أتم أحواله ظهوراً وذلك حينما يكون بدراً، بجامع شدة الظهور مع تأكد حصوله وتقريره فى النفس، واختيار تلك الهيئة المشبه بها لما يترتب عليها من إغناء السامع عن أن يسأل عن طبيعة تلك الرؤية المؤكَّد أمرها، المبالغ فى بيان حقيقتها بما يقربها من الأفهام نظراً لكونها لا يستطيعها بشر فى الدنياءلقد التقط النبى -ﷺ- من الطبيعة ما قرَّب به كلامه شأنه فى ذلك شأن المتأمل المتمعن الحريص على إبراز فكرته وإلا "فما أكثر الذين يقصون أو يصفون أو يشبهون أو يتخيلون فلا يعدون المظاهر المادية والأشكال الخارجية والحجوم والألوان والمقادير ويعطون فى ذلك ما يحكى الحديث التعليمى عن الأشياء ولا يمسون شيئاً من الإيحاءات المعنوية ولا يفهمون شيئاً من دلالة الماديات على المعانى ولا يعون شيئاً من وقع الألوان والأقدار[1].»

---

(١) فن القول أ/ أمين الخولى صـ١٠٤، ١٠٥ ط دار الكتب العربية سنة ١٩٩٦

أما النبى -ﷺ- فلتعبيراته إيحاءات وظلال تثرى المعنى وتكسبه من القوة ما به يتمكن فى النفس، وذلك ناتج عن لطف فهمه -ﷺ- لخبايا النفوس، وامتلاكه أدوات البيان التى بها يأسر القلوب ويخلب الألباب.

وكما بيَّنت فإن التشبيه -هنا- ليس مقصوده تشبيه ذات الله -تعالى- بالقمر، بل يُراد به تشبيه الرؤية بالرؤية.

ولا يخفى ما يفيده اختيار التشبيه بالرؤية -خاصة من أحوال القمر- من الإشارة إلى علو المرئِى -سبحانه وتعالى- ورفعته فوق خلقه جميعاً.

هذا: ويتأكد معنى التشبيه ويقر فى الأذهان مراده بالتذييل الوارد فى قوله -ﷺ-: "لا تضامون فى رؤيته" إذ أن هذا القول يؤدى نفس معنى القول السابق له وهو "كما ترون القمر ليلة البدر" فتلك الليلة لا يقع فيها ظلم ولا تزاحم لطالبى الرؤية، ومن ثم عمد النبى -ﷺ- إلى التعبير بجملة التذييل ترسيخاً لهذاالمعنى وتمكيناً له فى ذهن السامع.

وبهذا: فإن الغاية التى ينشدها النبى -ﷺ-من وراء الإكثار من مؤكدات خبر الرؤية تكمن فى المبالغة فى حث كل سامع لهذا الخبر على الاجتهاد فى العبادة وبلوغ درجة الإحسان فيها ليتحقق له موعود الله -تعالى- ورسوله -ﷺ- بأن يكون ممن تُنَضَّر وُجوهُهُم برؤية ربهم -سبحانه- وكذا المبالغة فى التبشير لِعِظم النعيم المرتبط بتلك الرؤية.

* * *

وننتقل من الحديث عن أعلى وأعظم نعيم أهل الجنة إلى الحديث عن أدنى عذاب أهل النار حيث بيَّنه لنا النبى -ﷺ- بقوله:

"إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ رَجُلٌ فِى أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِى مِنْهُمَا دِمَاغُهُ"(١).

---

(١) الجامع الصحيح للترمذى كتاب صفة جهنم، باب ما جاء أن أكثر أهل النار، النساء، رقم: (٢٦٠٤).
أهون: بمعنى أيسر وأخف، من هان عليه الشئ أى خف، وهوَّنه الله عليه سهله وخففه- أَخْمَص قدميه: الأخمص باطن القدم وما رقَّ من أسفلها وتجافى من الأرض، وهو أيضاً الموضع الذى لا يلصق بالأرض منها عند الوطء- جمرتان: مثنى جمرة وهى النار المتقدة التى إن بردت فهى فحم- ينظر: لسان العرب، المواد: [هون، خمص، جمر]

إن عذاب النار كله شديد مؤلِم غاية الإيلام حتى منه ما بالغ النبى -ﷺ- فى إثبات يسره فى هذا الحديث من خلال تأكيده خفته على مَن يُعذَّب به إذا ما قورن بغيره من أهل النار ممن تختلف عليه صنوف العذاب وألوان الهوان مستعيناً فى تقرير ذلك بـ "إنَّ" التى يُحدِث ارتباطها بمعنى التوكيد حالة من الترقب والانتظار لخبرها نظراً لتعلقه -هنا- بمعنى ذى أهمية بالغة حيث يتم الإفصاح به عن حقيقةٍ أيسر وأخف عذاب فى الآخرة.

ويبدو لى أن صيغة التفضيل "أهون" ليست للمفاضلة -هنا- وذلك حيث لم يرد وصف لعذاب فى النار باليسر سوى فى هذا الحديث، فليس هناك عذاب آخر يتقارب مع العذاب المذكور فى درجة يسره حتى يُفضَّل هذا عليه.

وأرى: أن مراد النبى -ﷺ- من التعبير بتلك الصيغة هو المبالغة فى إثبات يسر هذا العذاب مقدماً حتى إذا ما تم تصريحه به وإفصاحه عنه زاد وجل السامع من عذاب النار عموماً، وزاد حرصه على تجنب ما يؤدِى إليها خاصةً وأن أهون عذابها كما هنا من الشدة والإيلام بمكان.

يتبيَّن لنا ذلك ونتأكد منه من خلال وصف النبى -ﷺ- حالة صاحب هذا العذاب أثناء تلبُّسه به عند إيراده الخبر المترقَّب معرفته بقوله: "رجل فى أخمص قدميه جمرتان يغلى منهما دماغه" فعذاب كهذا وإن كان يسيراً بالنسبة لغيره حينئذ إلا أنه فى واقعه شديد غاية فى الشدة وتتأكد لنا شدته من عدة وجوه:

أولاً: دوامه وعدم انقطاعه يُفهم ذلك من اختيار الجملة الاسمية وسيلة للتعبير عنه لتأكيدها هذا المعنى وتقريرها إرادته فى نفس السامع.

ثانياً: دلالة هذا القول على شمول العذاب المذكور جميع بدن المعذَّب فليس ثمة جزء أو عضو يشعر به دون آخر، بل العموم شأنه تنكيلاً به وقهراً له، يُفهم ذلك من تصريح النبى -ﷺ- بملاصقة الجمرتين أسفلَ هذا الرجل "فى أخمص قدميه" وكذا التصريح بحصول الأثر الناتج عنهما فى أعلى جزء منه "دماغه".

ثالثاً: ما يفيده التعبير بـ "فى" فى قوله -ﷺ-: "فى أخمص قدميه" -وهى موضوعه للدلالة على الظرفية -من الدلالة على تمكُّن آلة العذاب فى جسم المعذب فلا تبرحه ولا يفارقها لصيرورتها بذلك كجزء منه مما يُعد مبالغة فى إذاقته العذاب يومئذ.

رابعاً: أن التعبير عن الأثر الناتج عن وضع الجمرتين فى أخمص قدمى المعذَّب بالغليان دون غيره من الألفاظ الدالة على أثر الحرارة الناتجة عنها يفيد المبالغة فى تأكيد شدة هذا العذاب وقوته.

خامساً: ما يفيده تسليط الفعل "يغلى" على مفعول يُمثل أحد أجزاء جسم المعذّب ومنتهاه من جهة أعلاه -وهو قوله: "دماغه" من بلوغ ما دونه من الجسم درجة قد تفوق فى شدتها درجة الغليان المصرَّح به، إذ لا يتصور أن يكون نصيب أعلى الشئ الموضوع على النار كنصيب أدناه منها، هذا: وإن كان الله -تعالى- قادراً على ذلك وأكثر منه إلا أن المعلوم من حال النار مع الشئ الموضوع عليها يؤيد ما ذكرتُه، فضلاً عن عدم تعارضه مع نص يُثبت خلافه.

نخلص من هذا إلى أن الإفصاح عن حالة مثل هذا المعذَّب وتأكيد يسر وخفة ما يلحقه من العذاب يومئذ إنما يقصد به النبى -ﷺ- المبالغة فى الترهيب من النار من جهة، والمبالغة -أيضاً- فى إثبات شدتها وبلوغها فى القوة حداً لا يحيط به وصف من جهة أخرى.

هذا:وإن كان النبى -ﷺ- قد ذكر الشخص المنسوب إليه هذا العذاب بلفظ النكرة فى قوله: "رجل" الواقع خبراً لإنَّ، فإنه يبدو لى أن هذا التنكير لا يُقصد به شمول هذا العذاب أفراداً كثيرين اعتباراً بما تدل النكرة عليه، بل إنه يقتضى الدلالة على فرد بعينه على سبيل القصد والتعيين ممن يصدق عليهم اسم الجنس هذا، ومما يؤكد هذا المعنى ويزيده تقريراً وبياناً رواية الإمام مسلم لهذا الحديث[1] التى نصت على أن المراد بهذا الرجل أبوطالب عم النبى -ﷺ- لوقوفه بجانبه ضد مشركى قريش ومنعه أذاهم عنه فترة حياته.

* * *

ومن مشاهد الآخرة التى ورد الإخبار عنها بأسلوب التوكيد قول النبى -ﷺ:

"إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ أُتِىَ بِالمَوْتِ كَالْكَبْشِ الأَمْلَحِ فَيُوقَفُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيُذْبَحُ، وَهُمْ يَنْظُرُونَ، فَلَوْ أَنَّ أَحَداً مَاتَ فَرَحاً لَمَاتَ أَهْلُ الجَنَّةِ، وَلَوْ أَنَّ أَحَداً مَاتَ حُزْناً لَمَاتَ أَهْلُ النَّارِ"[2].

---

(١) الرواية هى "أَهْوَنُ أَهلِ النَّارِ عَذَاباً أَبُو طَالِبٍ، وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَينِ يَغْلِى مِنْهُمَا دِمَاغُهُ" -صحيح مسلم- كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذاباً.

(٢) الجامع الصحيح للترمذى، كتاب صفة الجنة، باب ما جاء فى خلود أهل الجنة وأهل النار، رقم (٢٥٥٨). الأملح: الذى فيه بياض وسواد ويكون البياض فيه كثيراً ينظر لسان العرب مادة [ملح].

بداية ليس أبلغ فى إثبات عظمة النعيم وشدة العذاب من الإعلام بدوام كل منهما وعدم انقطاعه والنبى -ﷺ- ينقل لنا من خلال هذا الحديث ما يحقق هذا المعنى ويؤكده بالنسبة لدار الآخرة، حيث ابتدأه بـ "إذا" الشرطية التى يدل التعبير بها على أن الشرط معها مقطوع بوقوعه، ومن ثم غلب معها الإتيان بالفعل الماضى- كما هنا لكونه أقرب إلى القطع بالوقوع نظراً إلى لفظه[1].

ونظراً لما تحدثه "إذا" من تنبيه السامع إلى تحقق وقوع ما دخلت عليه فإن النفس لَتتطلع إلى الإحاطة بجوابها فإذا بقوله -ﷺ-: "أُتى بالموت كالكبش الأملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيذبح وهم ينظرون" يقرر حقيقة الخلود فى دار الآخرة ترغيباً فى الطاعة وزجراً عن المعصية.

تلك الحقيقة التى يتم العلم بها عن طريق المعاينة لما يُحقق أمرها فى النفوس ويُرسخه فى الأذهان بمشاهدة كل من أهل الجنة وأهل النار الموت- الذى عرفه كل منهم سابقاً عند قبض روحه- وهو يُذبح تأكيداً فعلياً على دوام نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار،

فالعلم بذلك إذن علم يقينى أكدته الجملة الحالية فى قوله -ﷺ-: "وهم ينظرون" مبالغة فى إسعاد أهل الجنة، وتحزين أهل النار، مبالغة تترسم حدودها، وتتحدد ملامحها عندما يطرق السمع قول النبى -ﷺ-: "فلو أن أحد مات فرحاً لمات أهل الجنة، ولو أن أحداً مات حزناً لمات أهل النار".

إذ يفيد هذا القول بلوغ الحالة الشعورية عند أهل الجنة فرحاً، وأهل النار حزناً أقصى حدودها نظراً لما أفاده التعبير بـ "لو" من أن موتاً محققاً كان سيقع لكلا الفريقين لو أن شدة الفرح، أو الحزن كانت تُميت من تعرض له، (إذا أن «لو» يُؤتَى بها لتعليق حصول مضمون الجزاء بحصول الشرط فرضاً[2].)

ونظراً لإرادة النبى -ﷺ- تأكيد مضمون جملتى الشرط والجزاء نراه قد ذكر مع كل منهما ما يُرسخ معناها فى نفس السامع ويُمكنه فى قلبه، فأكد جملة الشرط ابتداءً بـ "أنَّ" ثم أكد جملة الجزاء بـ "اللام" ليحصل عند السامع حينئذ قناعة ويقين بتحقق المعنى المراد بالنسبة لتصوير حال الفريقين، ومن ثم يترتب على ذلك مبالغته فى التزام ما أُمِر به، واجتناب ما نُهى عنه حتى يُصبح ممن تبلغ سعادتهم مداها عند رؤيتهم الموت وهو يذبح فى الآخرة.

---

(١) ينظر: الإيضاح ١١٧/٢ شروح التلخيص ٣٩/٢.

(٢) ينظر: الإيضاح ١٢٥/٢.

ومن الملاحظ هنا أن الأفعال: "أُتِىَ، يُوقَفُ، يُذْبَحُ" قد بُنيت للمجهول، والغرض من ذلك هو تمام العلم بفاعليها وهم الملائكة -عليهم السلام- ثم القصد إلى الأحداث لا إلى فاعليها، وصرف الانتباه إلى ما تنطوى عليه من دلائل هامة وخطيرة نظراً لملازمتها حينئذٍ لتأكيد فكرة الخلود القائم عليها الحديث وتقريرها تقريراً لا مزيد عليه.

هذا: ولقد وقع خلاف بين العلماء فى معنى ذبح الموت نظراً لكونه عَرَضَاً والعَرَض لا يقع عليه ذبح ولا غيره من الأفعال الخاصة بالمادة والجوهر.

فأنكر حصوله حقيقة طائفة، وتأوله آخرون بناء على أن المراد بذلك التمثيل ولا ذبح حقيقة، وقيل: بل الذبح على حقيقته والمذبوح هو متولى الموت لا الموت نفسه، وقيل: بل يخلق الله -تعالى- كبشاً ويسميه الموت ويُلقى فى قلوب الفريقين أن هذا هو الموت ويكون ذبحه دليلاً على الخلود فى الدارين، وقيل: لا مانع أن ينشئ الله -تعالى- من الأعراض أجساداً يجعلها مادة لها كما ثبت فى صحيح مسلم من أن البقرة، وآل عمران يجيئان يوم القيامة وكأنهما غمامتان ونحو ذلك[1].

وهذا الرأى الأخير هو الراجح، والذى أؤيده وأميل إليه نظراً لأخذه بمبدأ التسليم بواقعية أفعال الآخرة، وحصولها كما هى على سبيل الحقيقة دون تأويل، أو تقدير، أو إعمال للعقل فى تصور حدودها وكيفيتها (فإن ما جاء فى كلام الله تعالى. هو حقيقة بالنسبة إلى الله فإذا قيل تحدثت الشجرة أو نطق الحجر فهو بالنسبة للقدرة الإلهية واقع)[2].

ثم إن النبى -ﷺ- قد قال هنا: "أُتى بالموت" والإتيان لا يكون إلا من الذوات لا الأعراض وهذا مما يؤكد حقيقة تحول الموت من عَرَض إلى جوهر وذات.

فضلاً عن ذلك ما يفيده تشبيه النبى -ﷺ- الموت بالكبش حال الإتيان به من تأكيد ذاتيته حينئذٍ وتحوله من كونه عَرَضَاً إلى كونه جوهراً تمهيداً للتسليم بواقعية الذبح مع تمكين إرادته فى النفس مما يؤكد مراد الحديث وهو تقرير الخلود الموعود والمتوعد به يومئذ.

---

(١) ينظر تحفة الأحوذى ٦/٤٣٠، ٤٣١- التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة، تأليف: أبى عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرج الأنصارى القرطبى، ت،د/ أحمد حجازى السقا، ٢/٥٢٨، ٥٢٩، طبعة دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

(٢) البلاغة العربية فى ضوء منهج متكامل، د/ محمد بركات حمدى أبو على صـ ٣٠ بتصرف ط دار البشير للتوزيع، عمان - الأردن.

ولا يخفى ما فى الإتيان بالموت على هيئة الكبش من الإشارة إلى حصول الفداء به كما فُدِى ولد إبراهيم -عليهما السلام-، بالكبش فى الدنيا.

وفى اختيار الأملح -خاصة- إشارة أيضاً إلى حقيقتى أهل الجنة وأهل والنار بناءً على ما سبق بيانه من أن الأملح ما فيه بياض وسواد[1].

وبعد ومع كل هذا التوكيد للآخرة وما فيها م نعيم وعذاب فلا أجدنى إلا قائلاً كما قال النبى -ﷺ- عن حال الناس فى الدنيا بالنسبة لما ينتظرهم فى الآخرة: "مَا رَأَيتُ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا، وَلَا مِثْلَ الجنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا"[2]. !!

(١) ينظر تحفة الأحوذى ٦/٤٣٠

(٢) الجامع الصحيح للترمذى كتاب صفة جهنم، باب ما جاء فى صفة طعام أهل النار، رقم: (٢٦٠١)